



أخلاق العثمانيين في السيطرة الأوروبية



أَخْلَافُ الْعُتَمَانِيَّةِ فِي السَّنَقَطَاتِ الْاَوَّلِيَّةِ

الدكتور محمد راجوادی

أَخْلَاقُ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي السَّنَقَطَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ





الطبعة الأولى

1442 - 2020

ISBN 978-625-7682-20-6



هذا الكتاب

نحاول في هذا الكتاب أن نجتهد في أن نجيب على خمسة أسئلة كبرى رتبناها بأهميتها لا بأقدميتها ، فبدأنا بأحدثها الذي يتعلق بنهاية الدولة العثمانية وأهم سبب من أسباب نهايتها من وجهة نظرنا، وحللنا هذا السبب على نحو غير مسبوق، وإن لم يكن صعب الإدراك والاستيعاب والتصديق، وقصدنا من هذا التحليل الصريح أن يكون الضوء كافياً حتى لا نقع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى ، وإن كنا نرى أننا (كأمة مسلمة) معرضون للوقوع فيه بسبب نمطية فهمنا لبعض القيم بعيداً عن الأفق المفتوح والإيمان بالتجريب والتغليب والاستيعاب والاستصحاب، وفهم التلازم الفيزيقي بين الرث والمفيد، والاقتران البيولوجي بين الجذب والخصيب.

وفي الفصل الثاني نضئ بعض كواليس مسرح الدولة العثمانية في حقبة الانقلاب العسكري ١٩٠٨ / ١٩٠٩ الذي تكفل (بلا وعي وبلا فهم) بتبديد ثروة العثمانيين السياسية ومن ثم تبديد أراضيها وإرادتها ومهابتها ووجودها.

و في الفصل الثالث من الباب الأول نجيب عما نعتقده من علاقات السببية بين هذا الانقلاب وبين خميرة التذمر وبذرة التملل التي كانت سبباً في اندلاع الحرب العالمية الأولى بكل ما كان من قسوتها ، وغرائبية اندلاعها ، وسرعة اشتعالها ، ووبائية انتشارها، وتأجج نيرانها، وندلل بكل وضوح على الأثر المدمر الذي تركه التعصب ضد الإسلام ودولته في نسيج المجتمع الأوربي ، ثم أصبح التعصب نفسه ناراً مستعرة تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله ، ولهذا فقد دفعت أوروبا الشرقية الثمن ، و عانت أقصى المعاناة من الانخداع غير المبرر بالتحريض الديني الذي مارسه بعض دول أوروبا الغربية، فجعلت من القوميات (الموازية للدين) سبباً في إحراق أصحابها وتدمير مستقبلهم وخراب ديارهم ، وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل إنها ظلت تبخل بالعون على من تدفعهم إلى هذه الصراعات في بلاد كالليونان وطوائف كالأرمن، وقوميات كالصرب والسلاف بل والعرب أنفسهم .

ونعود إلى الانقلاب العسكري في الفصل الرابع من الباب الأول فنستعرض حياة أحد أبرز قادته وهو جمال باشا السفاح ١٨٧٢-١٩٢٢ الذي تكفل وحده على حد تعبيرنا بتدمير ما بناه عشرون خليفة عثماني، ونلقي الضوء على سياساته في الشام وفي إدارة الحرب العالمية الأولى، وعلى عجزه عن تحقيق نصر مؤزر كان متاحاً له في سيناء وغيرها، وعلى تورطه في كل ما يتسم بالبعد عن السياسة الحكيمة طويلة النظر .

وفي الفصل الخامس من الباب الأول نقدم تفصيلات سريعة عن الخطوات التي ورط بها الانقلابيون العسكريون ملايين المسلمين و دولتهم الكبرى التي هي الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ، وكيف مارسوا ما وصفناه ، بدقة و من دون مبالغة ، بأنه ذبح الدولة، ونكشف عن طبيعة الحمق في قرار الحرب حين ينفرد به العسكريون بعيداً عن التقدير الصائب للموقف، كما نشير إلى الأسلوب المغامر في لجوء العسكريين إلى المزايدات القاتلة، وعن التورط في مواقف لم يكن من الحكمة الاندفاع إليها بأي حال من الأحوال مما أدى بهم إلى هزيمة أنفسهم و دولتهم وأبناء دينهم ثم إلى معاهدة سيفر المشنومة ١٩٢٠ ومعاهدة لوزان ١٩٢٣ الظالمة التي حاولت تخفيف معاهدة سيفر.

ننتقل إلى الباب الثاني الذي نحاول من خلال فصوله الأربعة أن نجيب على السؤال الخجول الذي يتحدث عن الدور الغربي في التغير بالأرمن واليونان وشرق أوروبا في عداوة الدولة العثمانية وتكوين رصيد من هذه العداوة المستدامة غير المبررة ، والإضافة الموسمية إلى هذا الرصيد بما يكفي للاستدعاء في مواجهة صعود تركيا المعاصرة، ونقدم باختصار شديد مقاربات فاحصة لأسرار الاتهام الأرعن بمذبحة الأرمن، منوهين بعلاقته بالحقد على الأفق الإسلامي ، و مشيرين إلى أن نتيجة أي تحقيق عادل لم تكن لتصب في صالح الأرمن، ومذكرين بأن الأرمن أخذوا بما هو أكثر من الثأر، ونشير بصراحة إلى الدور الفاعل الذي تلعبه إسرائيل في تبريد أو تأجيج مطالبات القوى الإمبريالية بإثارة هذا الموضوع، ونقدم تحليلاً دقيقاً للنص القانوني المهندس أمريكياً للتعريف بالمذبحة بطريقة توظف الافتراء بدلا من المنطق، والادعاء بدلا من الحقائق .

و في فصل تال نتناول القضية نفسها من وجهة نظر الانفعال الأرمني مركزين على الحقائق التي تتعلق بالثأر الذي أتم به الأرمن انتقامهم من كبار القادة العسكريين الأتراك الذين هم أيضا من قادة حقبة الانقلاب العسكري الثاني الذين أوردوا الدولة العثمانية موارد التهلكة.

وفي الفصل الثامن نقدم رؤية غير مسبوقة في صياغتها الواضحة حول الطبيعة الشرقية لليونان بعيداً عن التوريط الغربي لها مرة بعد أخرى في عداة العثمانيين، ونجاهر بالقول الذي لم يسبقنا أحد إلى صكه على هذا النحو الصريح وهو أن اليونان شرقية أكثر منها غربية.

ومع أننا نعرف أننا في ظن بعض القراء أقرب ما نكون إلى من يستحق الوصف بأنه الصارخ في البرية بمثل هذه الحقائق فإننا نرى التصريح بها واجبا لا مناص من القيام به في وجه حملات غربية شديدة الوطأة على أعصاب الغربيين المنصفين أنفسهم الذين كانوا قد استراحوا من هذه النزعات التدميرية فأبت مجموعات متناثرة من محبي العنصرية والمستثمرين في الكراهية إلا أن تجدد روح التوتر وفعل التوتير .

وفي الفصل التاسع نتناول بكل صراحة ووضوح مراحل تفاقم الزحف الروسي على أراضي الدولة العثمانية معترفين بدون مواربة بما أحرزته روسيا من خلال الحرب العثمانية الروسية من بدايات مكاسب كانت كفيلة لها بأن تستحوذ على كثير من مكونات الدولة العثمانية تباعا وبدون جهد تنموي أو استيعابي، وكانت تمارس هذا من منطلق الإمبراطورية التوسعية التي تطور شكلها مع اختلاف مسمياتها من امبراطورية القيصرية إلى الكيانات الثلاثة في الحرب الباردة : دولة الاتحاد السوفييتي ، و دولة الاتحاد اليوغسلافي ، و مجموعة ما كان يدور في الفلك المسمي بحلف وارسو.

وقد صدرنا في كتابتنا لهذا الفصل من كتابنا عن روح إنسانية متجردة ، فإنه تلقي بذورا صريحة للتفهم المفيد لتاريخ تلك الشعوب الطيبة التي غلبت على أمرها مرة بعد أخرى ، و لا تبعد عن الحقيقة ولا عن جوهر احترام إنسانية الانسان ، لكنها تنتقد توظيف التعصب في إبادة الجماهير، وهو أصدق وصف يمكن استخدامه

لما مارسته الامبراطوريات الغربية من الظلم في حق شعوب أرثوذكسية شرقية عاشت في ظل الدولة العثمانية في ظروف أفضل بكثير من الظروف التي واجهتها بعد انفصالها عن تلك الدولة، ثم بعد انهيار تلك الدولة التي كانت في أقل تقدير عامل استقرار إن لم تكن عامل ازدهار.

في الباب الثالث ، من كتابنا هذا ، نواجه سؤالاً ملحا يتعلق بقضية شائكة يهرب العرب منها، وهي حبهيم لنزعة جبر التكرار في تزوير تاريخ الدولة العثمانية، وتحويل سخطهم على فترة محدودة من الحكم العثماني ليكون مبرراً لكراهية مفتعلة لهذه الدولة كلها على مدى تاريخها، وتوظيف بعضهم هذا السخط للتنفيس عن كراهيتهم المرضية لهويتهم الإسلامية و للتعبير عن استعدادهم للانسحاق أمام القوى الغربية ذات الماضي الاستعماري و القوى الجديدة الأشد قوة و الباسطة نفوذها في المجتمع الدولي المعاصر، ولا نقف في مقاربتنا لهذه القضية عند أفق سيكولوجي أو تاريخي فحسب، لكننا نسمي الأشياء باسمها القانوني الحقيقي وهو التزوير الناشئ عن رد الفعل المستشرف لحلم عابر أو آمال مجهضة، ونحن إذ نفعل هذا بجسارة فإننا نفعله من منطلق الإيمان بضرورة الوصول بأمتنا في حقبتنا الراهنة إلى درجة من النضج الكفيل بالوصول إلى الصواب في الحكم على الأمور.

ولهذا السبب فإننا نقدم في الفصل التالي استعراضاً حياً لم تُسبق إلى تقديمه لحقيقة مواقف تركيا الموالية لقضايانا ، والمشاركة بأقصى ما كان متوقعا و بأقصى مما لم يكن متوقعا من دعم في تحقيق انتصارنا في حرب أكتوبر التي هي في رأينا النصر الوحيد الذي حققته أمتنا الإسلامية في العصر الحديث، ومع أن الأتراك لم يتأخروا عن مثل هذه المواقف الإيمانية الأصيلة و لم يتاجروا على الإطلاق بمثل هذه المواقف المفصلية ، فإننا نذكر الحقيقة التي يتجاهلها الجميع ، وربما أنهم يجهلونها ، وهي أن مواقف تركيا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما بعدها من تأييدها المطلق لكل خطوات الرئيس السادات في طريق السلام ، كانت باعثة قويا على الخوف الاستراتيجي من هذا التقارب الإسلامي الصامت والصاعد و الواعد ، وهو ما دعا إلى إسراع الأجهزة المخبرانية بتعجيل و تنفيذ وإنجاح وستر أقصى انقلاب عسكري في التاريخ التركي والتاريخ العالمي ، وهو انقلاب ١٩٨٠ بإجرامه وفضائعه التي كانت كفيلة لولا إرادة الله ألا تقوم للإسلام ولا للأتراك بعده قائمة.

ونصل في إيماننا بإخلاص الأتراك للعرب إلى القول بأنهم لم يخونوا العرب لحظة واحدة منذ تأسست جمهوريتهم في ١٩٢٣ مع أن العرب يستسهلون البناء على انتقاد مواقف دولية لم يكن أمام تركيا بد منها لبناء دولتهم مثل قبولهم الاعتراف بقيام إسرائيل حتى يتمكنوا من عضوية حلف الأطلسي بدلا من أن يتركوا أنفسهم و دولتهم فريسة في العراء للذئاب المتلمظة بهم من كل زاوية .

وننطلق في فصلين تالينين لحديث موضوعي مفصل عن الإنجاز الذي دمره العرب حقدًا على أنفسهم ، وهو خط سكك حديد الحجاز ذي الألفي كيلو متر والذي بفضله تضاعفت أعداد الحجيج في سنة إنجازه أكثر من ثلاثة أضعاف ، ذاكرين فضل السياسي العثماني العربي أحمد عزت العابد ١٨٥٥ - ١٩٢٤ الذي تمكن من خلال مكانته في الدولة العثمانية من تحقيق هذا الإنجاز.

وفي الباب الرابع نقدم موجزا شديدا لإيجاز لرؤية جديدة انفردنا باكتشافها وصياغتها للآثار العميقة التي أحدثها صعود العثمانيين في التاريخ الأوربي ، وترك بها بصمة على تفكير البريطانيين والفرنسيين أصحاب الامبراطوريتين الكبيرتين المستعدتين للصعود في ذلك الحين، ونقدم في الفصل الرابع عشر والخامس عشر رؤيتنا لانتصار الإنجليز على السلطة المسكونية المرتبطة بالكاثوليكية في عصر هنري الثامن ١٤٩١ - ١٥٤٧ وابنته اليزابيث الأولى ١٥٢٢ - ١٦٠٣ .

كما نقدم في الفصلين السادس عشر والسابع عشر رؤية مختلفة عن نجاح الملك الفرنسي المؤسس فرانسوا الأول ١٤٩٤ - ١٥٤٧ في بدء نهضة فرنسا الحقيقية وحماية الإنسانية من العودة إلى العصر الحجري بفضل تعاونه مع الخليفة العثماني سليمان القانوني ١٤٩٤ - ١٥٦٦ فيما سمي بالحلف المقدس عند الفرنسيين الكاثوليك، ووصف عند الرومانيين من الكاثوليك بأنه الحلف غير المقدس.

و في الفصل الثامن عشر نتحدث بصراحة عن أن مجاملة فرنسا التي انتهت بانتصار العثمانيين والبريطانيين و الفرنسيين و سردينيا و مصر وتونس في حرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦ كانت السبب الجوهرى في تخريب الميزانية العثمانية على الرغم من الانتصار الذي حققه العثمانيون وحلفاؤهم في تلك الحرب.

أما الباب الخامس و الأخير من هذا الكتاب فيناقش نجاحات العثمانيين في مواجهة سطوة الإمبراطورية الرومانية المقدسة بدءاً من التحالفات التي كانت قد أنجزتها الملكة إيزابيلا الأولى ١٤٥١ - ١٥٠٤ وزوجها فرناندو ١٤٥٢ - ١٥١٦ من خلال احتكار العروس الأوربية لإنجاح التعصب القاتل ضد الإسلام واليهود ، وهو ما وصل إلى ذروته بوصول كارلوس الخامس ١٥٠٠ - ١٥٥٨ للقب الامبراطور الروماني المقدس مقدمين لهذا التطور بدءاً من مصاهرة هذين الملكين في ثلاثة محاور متتابعة مع مانويل الأول ملك البرتغال ١٤٦٩ - ١٥٢١ ومصاهرتهم لكل العروش الأوربية الأخرى وذلك بعد الاستيلاء على غرناطة ١٤٩٤ .

ونستعرض مكانة سليمان القانوني بين ثمانية من أنداده الأوربيين من طبقة هنري الثامن ١٤٩١ - ١٥٤٧ وفرنسو الأول الفرنسي ١٤٩٤ - ١٥٤٧ ووجون البرتغالي ١٥٠٢ - ١٥٥٧ وكريستيان الثاني الدنماركي ١٤٨١ - ١٥٥٩ ولويس الثاني المجري ١٥٠٦ - ١٥٢٦ ، وكيف استطاع مواجهة هذه العصابة من الملوك المتعصرين.

كما ناقش في فصل تالٍ مدى الأثر النفسي العميق الذي أحدثه العثمانيون في نفسية فيليب الثاني ١٥٢٧ - ١٥٩٨ الذي عاش حريصاً على عدم مواجهة العثمانيين رغم اتساع نفوذه الامبراطوري في امبراطورية نالت الوصف القاتل بأن الشمس لا تغيب عنها، و قد كان ينهج ذلك النهج على حين تورط ابن أخته ملك البرتغال سيباستياو ١٥٥٤ - ١٥٧٨ في مواجهة مع السعديين وحلفائهم العثمانيين كلفته ضياع روحه وعرشه وأسطوله. ولهذا ، فإننا نقرأ في الفصل الذي يليه معركة الملوك الثلاثة قراءة جديدة بعيداً عما شاع وذاع (لأسباب معروفة) من تناولها على نحو إقليمي مغربي ضيق يتجاهل دور العثمانيين جعل قراءنا يتعجبون من أن يطمس التاريخ الإسلامي على ذلك النحو الذي درسوا به .

وننتقل من هذا الفصل إلى فصل تالٍ نناقش فيه ظاهرة سيكولوجية وصفناها على نحو ما تنبئ عن نفسها وهي فكرة الامام الغائب أو المهدي المنتظر البرتغالي التي لجأ إليها الكهنة البرتغاليون بعد ضياع دولتهم المتعصبة وقتل ملكهم الشاب الذي لا يزال البرتغاليون يتصورون أنه غائب وسيعود يوماً إلى حكم الدنيا .

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يرفع به ،
وأدعوه جل جلاله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربيها
المطبعة في ظل غربتي ومرضي وتشردي واستيحاشي ، والوقت لا يسعفني ،
والجهد يتضاءل ، والذكاء يخبو ، والألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ،
والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، والسهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعض ،
والعمر قصير ، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل
الله جل جلاله وكرمه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى ، وأن يقيني شر التعجل ، و شرور
العجز و الكسل و الوهن ، وأن يقيني شر الانخداع ، وأن يرزقني الغنى والهدى
والعفاف والتقوى ، وأن يتجاوز عن سيئاتي ، وأن يتغمدي برحمته ، وأن يديم عليّ
توفيقه ، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت ، وأن
يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي وحدسي و ذائقتي ، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل ، وأن يرزقني العفاف والغنى ،
والبر والتقوى ، والفضل والهدى ، والسعد والرضا ، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم ،
وقلب الطفل ، وإيمان العجائز ، ويقين الموحدين ، وإخلاص المؤمنين ، وعطاء
المحسنين ، وشك الأطباء ، وتثبت العلماء ، وخيال المبدعين ، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي ، وأن يكفيني شرها ، وشر الناس ،
وأن ينفعني بما علمني ، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره
وحمده وعبادته ، فهو وحده الذي منحني العقل ، والمعرفة ، والمنطق ، والفكر ،
والذاكرة ، والصحة ، والوقت ، والقدرة ، والجهد ، والمال ، والقبول ، وهو جلّ جلاله
الذي هداني ، ووفقني ، وأكرمني ، ونعمني ، وحبب فيه خلقه ، وهو وحده القادر على
أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع ، وبالتأكيد : كثيرة ، ومتواترة ، ومتنامية ، فله
سبحانه وتعالى - وحده - الحمد ، والشكر ، والثناء الحسن الجميل

د . محمد الجوادي

الباب الأول

البداية من النهاية

الفصل الأول

السبب الذي أودى بحياة الدولة العثمانية

كان أخطر الأمراض التي قادت إلى نهاية الدولة العثمانية هو الاندفاع المقنن (بالإجراءات القانونية السلبية إن جاز هذا التعبير) في سياسة تقييد المعرفة ومنع انتشارها، وباختصار شديد فإن طبيعة الانفجار المعرفي الذي نعيشه الآن كان موجوداً دوماً منذ خلق الله الأرض ومن عليها (على نحو مصغر) ثم أصبح موجوداً (على نحو أكبر) منذ بدأ عهد الطباعة وما تلاه من ازدهار نشاطي الصحافة والنشر حيث أصبحت الأفكار (سواء أكانت حسنة أم غير حسنة) تنتشر بسرعة لم يتخيلها بل لا يتخيلها حتى الآن إلا من جربها (فيما كتب من فكر جديد أو غريب أو مبدع) وخاض التجربة بنفسه.

ومما يؤسف له أنه بسبب اجتهاد فكري (صدر و صور تحت شعار أنه اجتهاد فقهي) فقد حرم من صوروا على أنهم هم الفقهاء العثمانيون الطباعة، وكانت هذه الخطوة أو الفكرة أو "الاقتناع" خطوة قاتلة لا خطرة فحسب، وكانت هي في رأينا المتواضع في المقام الأول (وليس غيرها من المعقبات الأخرى) سبب الكارثة التي أدت إلى انهيار الدولة وأدت حضارة الإسلام على نحو غير مسبوق.

الكارثة لا تزال قابلة للتكرار

ومن العجيب أن المعطيات الفكرية التي استند إليها هؤلاء الفقهاء لا تزال موجودة، ولا تزال تدفع بعض فقهاء معاصرين إلى الظن بحرمة بعض الأشياء أو بعدم نفعها على أقل تقدير، و عند هؤلاء الملتزمين (أو السلفيين أو الأصوليين) فإنه يترتب على الحكم بعدم نفعية شيء ما أن يصبح بذل الوقت فيه مضيعة للوقت، مما نهى عنه الإسلام، وهكذا تصبح الخطورة كامنة في أن يدخل أي شيء جديد (لا يعرف من حكم على كنهه فائدة مباشرة له) إلى دائرة الكراهية الفقهية بسهولة ويسر،

مع ما يترتب على هذا من الكوارث التي تكفل لأعداء الإسلام أن يبقى مجتمع الإسلام على الدوام مكافحاً من أجل الوصول المتأخر إلى نقطة الصفر.

حتمية ربط الجماهير المسلمة بالعلم

ومع أن وجه الحق في بيان هذا الموضوع يكاد يكون ساطعاً للمنشغلين بالعلم فإنه ليس كذلك أمام غير المشتغلين بالعلم ، ولهذا فقد كنا ولا نزال نعتقد في أن الأمر الأيسر هو تحويل أغلبية الناس أولاً إلى مشتغلين بالعلم أو منشغلين بالعلم، من خلال مناهج التعليم و الدراسة المنتظمة على سبيل المثال، مهما كان مستوى هذا الاشتغال أو الانشغال فذلك أيسر وأجدي من الدخول المتكرر في المناقشات الفلسفية والمنطقية حول جدوى العلم وهي مناقشات محكوم عليها مقدماً بالفشل ، وذلك لأن المنطق لا يستطيع أن يتجاوز ما هو حقيقي من وجهة نظره فكيف بما هو أقرب إلى الخيال؟ مما لا يعرفه وما لم يجربه.

العواقب السياسية لتقييد المعرفة

ننتقل إلى الموضوع السياسي قبل أن تستغرقنا نظرية المعرفة في مناقشات مثيرة لكنها كفيفة بأن تبدو وكأنها تبتعد بنا عن موضوعنا. فنجد أن المجتمع العثماني بسبب قصور معرفته بالدعوى السياسية والتأريخ السياسي في عصر النهضة في أوروبا أصبح فريسة سهلة لأية صرعة براقة. وعلى سبيل المثال المؤذي لمشاعرنا فإن القروي الذي يشاهد صنوبر المياه في المدينة قبل أن يعرف شبكات المياه يظن أن هذا الصنوبر كفيل من تلقاء نفسه باستحضار المياه، دون أن يدري أن هناك شبكات داخل الحائط وتحت الأرض يمر بها الماء قبل أن يصل إلى هذا الصنوبر، ومثل هذا القروي السياسي إذا صادف دعوة كدعوة الاتحاد والترقي ظن أن مثل هذه الدعوى في حد ذاتها كفيفة بتحقيق التقدم والتصنيع والإنتاج وكفيلة بمد السكة الحديدية والخطوط البحرية ما دامت قد عرضت للحديث عن مثل هذا الهدف ضمن خطابها السياسي أو برنامجها الانتخابي.

عجز العثمانيين عن كشف قصور الفكر المناهض لهم

لم يكن المجتمع العثماني بحكم انعزاله عن الجدل السياسي الحقيقي قادراً على أن يكشف قصور أطروحات الجمعيات المغامرة من قبيل "تركيا الفتاة" و"الاتحاد

والتراقي"، ولهذا فقد كان من السهل على هذا المجتمع أن يندفع في الدعاوى التي تطالب أو ترى أن الأتراك أولى بخير بلادهم (تركيا للأتراك التي قلدها المصريون بمصر للمصريين) بدلا من أن ينفقوه على ولايات تابعة هنا وهناك، وبخاصة إذا كانت الأبناء الشحيحة تنقل صورة رغبة هؤلاء الأبناء المتمردين في هذه الولايات البعيدة في التمرد والانفصال مع أنهم مستفيدون من وجودهم في كيان الدولة العثمانية.

كان هذا هو التأثير القاتل الأول الذي نشأ عن التمرس خلف سور يحجب الإفادة من الطباعة وما تنقله من المعرفة والمعرفة المضادة والرأي والرأي الآخر وما تخلقه من الوعي السياسي ذي الاتجاهات المتعددة في مقاربة القضايا.

تحيز الدولة بلاوعي ضد الأغلبية المسلمة

وعلى صعيد ثان لم يتطرق إليه أحد، من قبلنا، فقد كان هذا القرار نكبة على الأغلبية المسلمة في الدولة العثمانية ذلك أن الأوربيين بدأب شديد ودهاء أشد دفعوا الأقليات غير المسلمة أن ترتب لنفسها حقوقاً خاصة تستند فيها إلى ما كان سائدا مما تميزت به الدولة العثمانية على وجه العموم من التسامح مع غير المسلمين، وهكذا فإنه في النهاية أصبح طبع الكتب الدينية التبشيرية متاحاً في الوقت الذي كان هذا ممنوعاً على الكتب الإسلامية وكتب المسلمين لولا أن خزائنهم في مساجدهم كانت كفيلاً بالحفاظ عليها، ولهذا فإن العهد الأخير من عهود الدولة العثمانية سجل أمرا غير منطقي، لم يكن موجودا من قبل، إذ شهد تفوقاً تكنوقراطيا وفكريا لغير المسلمين على كثير من المسلمين لسبب وحيد وهو أن كنائس هؤلاء والمعاهد الملحقة بها أصبحت تتمتع بمزايا وأجهزة مساعدة على التعلم (بما فيها المطابع) لا يتمتع بها المسلمون في مساجدهم ومؤسساتهم التعليمية بما في ذلك مؤسسات تعليم الدين.

المفارقة في قصة الكلية السورية

في مثل هذه الظروف نشأت الجامعة الأمريكية في بيروت على سبيل المثال ولم يكن هذا اسمها وإنما كان اسمها الكلية السورية، وكانت تستهدف أن تكون بؤرة للتبشير ولنشر الديانة المسيحية والثقافة المسيحية والقيم المسيحية (بتعبير العصر الذي نعيشه الآن) بيد أن إرادة الله كانت نافذة فإذا بالأمريكيين أنفسهم ينحرفون بفكرة

الكلية السورية في بيروت لتكون الجامعة الأمريكية بدلا من الكلية السورية ! مع الفارق الكبير و المبين الذي يلخصه تغيير الاسم على هذا النحو، ونستطيع في هذه الفقرة أن نلخص للقارئ ما كتبناه في كتابنا "الشمعة الأمريكية في نهضة الشام الثقافية الحديثة" من أن الإغراءات الأمريكية المضادة سرعان ما أغرت الأمريكيين أنفسهم بتحويل الدراسة في الكلية السورية لتكون باللغة الإنجليزية لا باللغة العربية، وهكذا أجهض الأمريكيون أنفسهم و بأنفسهم تجربتهم التبشيرية في مرحلة مبكرة حتى إن "فان ديك" المستشرق المؤسس لهذه الكلية/الجامعة أثر أن يستقيل وأن يترك التجربة لأنه اكتشف أن المسار قد انطلق بعيداً عن الهدف الديني الحقيقي الذي ضحى وجاء من أجله.

تحول في الولاء مع العجز عن التأثير

و على كل الأحوال فقد أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أبنائها من هم على استعداد ليكونوا أمريكيين بدلاً من أن يكونوا عثمانيين، وبالطبع فإن الأمريكيين اعتبروا هذا إنجازاً بينما تجاهل الأوروبيون الأمر في ظل ما كان يطبع علاقاتهم بأمريكا من عنجهية الحضارة الأقدم والخبرة الأوسع ، لكن النتيجة على مستوى الدولة العثمانية كانت للأسف الشديد مهددة للوحدة الوطنية وللسلام الاجتماعي وللأمن السياسي على حد ما يعرف كل من قرأ تاريخ تلك الفترة من نهاية الدولة العثمانية وتمزق الشام على سبيل المثال.

الوقوع في أسر الأثر الدفين للأدب الفرنسي

الصعيد الثالث كان أخطر بكثير من الصعيدين الأولين، وهو أن الأدب الفرنسي وبخاصة ثمرات الأدبين الروائي والمسرحي دخلا إلى الدولة العثمانية من دون استئذان لتسجيل تجاربها الاجتماعية من منظور فرنسي معاد ومتعال معاً بل ومتأمر أيضاً ، وفي ظل غياب الأدب العثماني عن تسجيل حالة مجتمعه فقد أصبح الأدب الفرنسي مع الوقت هو المصدر التاريخي والفلكلوري لكل ما يحيط بالدولة العثمانية وصورة بنائها الداخلي، وأصبحت الرؤى الفرنسية الخيالية تسد مسد الحقائق التاريخية، فإذا تحدثت عن السلطنة "فلانة" فأنت تروي ما تصوره الأدب الفرنسي عن حياتها ، وليس ما صوره العثمانيون أو غيرهم عن حياتها، فضلاً عن أن تقرأ نصاً صادقاً يمكن أن يكون هو حياتها نفسها .

وهكذا رمى العثمانيون أنفسهم من حيث لا يدرون (ومن حيث لا يكادون يصدقون حتى الآن) في المستوى الثالث من الافتراء الأدبي على التاريخ، فاصبح المتاح عن التاريخ العثماني والمتكرر (حتى عند بعض أبناء العثمانيين أنفسهم) لا يمت للواقع بأية صلة، ولا يعتمد على ما سجله أهله عنه ، ولا على ما صور بناء هذا التسجيل، وإنما على ما ألفه وصوره عدو غير عاقل وغير عادل عن هذا التاريخ من أجل تشويهه، ومع الزمن بقي الأثر الأدبي الفرنسي ليكون بمثابة (إنجيل) لأن الرؤية الأخرى أو الأمامية لم تكن موجودة بنسبة مناهضة وذلك بسبب منع الطباعة والنشر ، وبالطبع ما يسبق الطباعة والنشر من التأليف و ما يسبق التأليف من القراءة و الاهتمام .

التصوير في محل التصور

وهكذا حلّ التلفيق المعادي محل التأليف الذاتي ، وحل التصوير محل التصور ، وحل المسخ محل الأثر كما حلت النصوص المفبركة محل النصوص المروية، بينما ينتمي العثمانيون إلى حضارة إسلامية ارتفعت بقيمة الرواية حتى رواية اساطير الأولين بطريقة الإسناد و العنونة على نحو ما نرى في تفسير الطبري رضي الله عنه وأرضاه.

ضرورة ارتباط التحول السياسي بالاندفاع معرفي

في مجمل الأحوال كان الإصلاح السياسي يقتضي نوعا من أنواع الاندفاع "المأموني" [نسبة إلى مجمل سياسة الخليفة المأمون] وهو الإصلاح "التحضري" الذكي الهادئ خفيض الصوت الذي اندفع إليه الخليفة المأمون ، وهو يدفع وزن الكتاب ذهابا لمن يترجمه، وقد اقتنع تماما بهذا الاندفاع الذي جعله يترجم كل شيء دون الوقوف عند نظرية العلم النافع والعلم غير النافع التي لا نكف عن انتقادها لأنها مع ما يبدو من حسن نيتها ومقصدها في الحفاظ على الوقت كانت كفيلا بطريقة أو بأخرى بتشجيع فتوى كانت سببا جوهريا في انهيار دولة من أهم دول العالم ، وربما كانت هي أهم دول التاريخ الإسلامي كله بلا استثناء.

الفصل الثاني

الانقلاب العسكري الذي أضع الدولة العثمانية في تسع سنوات

حكم السلطان عبد الحميد الثاني الدولة العثمانية ما بين ١٨٧٦ و ١٩٠٩ أي ثلاثاً وثلاثين سنة، ولم يكن هذا أمر غريباً في عصره ، فقد حكمت الملكة فكتوريا التي عاصرتة ٦٤ عاماً ما بين ١٨٣٧ و ١٩٠١ تمثل ضعف مدته ، وقد عاصر حكمه حكمها طيلة ربع قرن من الزمان، كذلك فإن الحكام الروس الذين عاصرهم السلطان عبد الحميد تميزوا بطول مُددهم ، فقد حكم نقولا الأول ٣٠ عاماً و ألكسندر الثاني ٢٦ عاماً حتى اغتيل ، و ألكسندر الثالث ١٣ عاماً ، و نقولا الثاني آخر الأباطرة الفعليين ٢٣ عاماً (١٨٩٤ - ١٩١٧) حتى أُعدم.

موجات الحراك

مع أن الظروف الدولية المحيطة بالدولة العثمانية كانت من أصعب ما يُمكن في عهد السلطان عبد الحميد ، فإنه استطاع بدأب وذكاء أن يقود سفينة الدولة باقتران في خضمّ محيط مائج وهائج، من دون أن تفقد بوصة واحدة من أرضها ، وكانت دعوات القومية والراдикаلية تجتاح العالم وليس الإمبراطورية العثمانية وحدها ، فقد صادف عهد السلطان عبد الحميد موجات وموجات مرتدة من الحراك الاجتماعي والتقلبات السياسية التي جاءت كنتيجة متوقعة لظواهر مفصلية في التاريخ الإنساني، وكان هذا السلطان واعياً وقادراً إلى حد كبير على الاستيعاب والمبادرة والفهم وحُسن التصرف.

الإنعاش و الانتعاش و الانتفاش

ومما لا شك فيه أن النزعات الجديدة المستندة إلى دعوات براءة من قبيل التتريك و القومية الطورانية والدعوات الانفصالية كانت تُلاقي استحقاقات كثيرة كفيلة بإنعاشها ثم انتعاشها و انتفاشها على جسد إمبراطورية مترامية الأطراف قابلة للتعددية ، وهكذا أخذت دعوة جماعة الاتحاد والترقي تنتقل من سرية مُحكمة إلى سرية قابلة للتسريب ثم إلى علانية حذرة ثم إلى علانية مُغامرة ثم إلى المغامرة المتأمرة ثم إلى المغامرة الخاسنة .

وقد كان من سوء حظ الأتراك أن دعوة الاتحاد والترقي وجدت إطارها الفاعل في شباب العسكر الذين كان بعضهم يتوق إلى الإسراع في تحقيق الذات، وقد ظن هؤلاء كما يظنّ العسكر في كل مكان أن جلوسهم على كراسي الحكم كفيل بأن يُنجز لهم الأحلام والتطلعات والمثاليات التي اعتنقوها في فترة ما من فترات شبابهم .

العسكريون ينظرون بقلق بالغ إلى التعددية

ولما كانت الدولة العثمانية بحُكم تكوينها ، وبحكم استهدافها للروح الإنسانية في الإسلام و استهدافها بتعاليم ذلك الدين الحنيف، دولة متعدّدة الأعراق والأديان والمعتقدات ، فقد كان العسكريون ينظرون بقلق بالغ إلى التعددية التي لا تتناسب مع طبيعة العسكر، وفي مثل هذه الحالة فإن الحل التاريخي الأسهل عند العسكريين ومن على ساكنتهم هو الانحياز إلى طائفة ما (أيًا ما كانت) وإلقاء كل الأمور بين أيديها، وفي أيديها وحدها ، مع تبرير اختيار هذه الطائفة بالذات، والذين عاشوا العسكرية المصرية المعاصرة يعرفون أنها في فترة من الفترات انحازت إلى فكرة علو كفاءة أبناء إقليم المنوفية ومن ثم أضفت على أبنائه كل الصفات المطلوبة للعسكرية وقلّلت من احتمالية ونسبة وجود هذه الصفات في أبناء الأقاليم الأخرى .. و مع هذا العنت في التفسير والحكم على الأمور ، فإن مثل هذا التقليد لا يجد ممانعة في التطبيق المرحلي ، بحكم أنه يظل قابلا يوما ما للتغيير. وقد حدثت أوضاع شبيهة بهذا حتى في مؤسسات تعليمية كالأزهر الشريف بل في شركات مؤممة، ومصانع مُنتجة، ومؤسسات قطاع خاص..

الانقلاب العسكري فرض استراتيجية مضادة للعثمانيين

وليس هذا بالطبع مجالا للاستطراد في هذا الموضوع، لكنه تقريبا لما حدث على أيدي ضباط تركيا الفتاة، حين قاموا بانقلابهم العسكري تحت مظلة الدعوة إلى سيطرة الأتراك، وتفضيلهم بل تمادوا إلى القول بضرورة تترك الأجناس الأخرى التي كانت (تبعًا للمصطلحات الحديثة) تُشاركهم حقوق المواطنة في الدولة العثمانية ، وهكذا جاء الانقلاب العسكري ليفرض استراتيجية مضادة لنهج العثمانيين على مدى خمسة قرون (وإن كان العرب الانقلابيون قد زوروا التاريخ كما شرحنا في أكثر من موضع) و كان من الطبيعي أن يُحس العرب والأكراد والشركس والأرمن بالقلق والتوجس والنفور من هذا التوجه الذي حمل ضباط الانقلاب العسكري

العثماني رايته ، ووزره بوضوح كامل منذ ١٩٠٩ ، حين تمكّنوا من إزاحة السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس (الشهير برشاد) مكانه ١٩٠٩ - ١٩١٨ ليكون بمثابة حاكم صوري من طراز الرؤساء الشكليين الذين نعرفهم و تفرضهم الانقلابات العسكرية ريثما تُتمّ ما تعتبره في نظرها تمثيلية الانتخابات.

طرائف القدر في أسماء القيادة الثلاثية

من طرائف القدر أن القيادة في عصر الانقلاب العسكري التركي لم تكن في يد قائد واحد ، وإنما كانت قيادة ثلاثية بين ثلاثة من الباشوات الذين تولوا الرياسة و الوزارات العسكرية الثلاث : الداخلية والبحرية والحربية ، ومن الطريف أن أكبرهم مقاما كان طلعت باشا وأن الآخرين كانا جمال و أنور (هكذا كانت أسماؤهم التركية المُختصرة التي سمي بها خلفاؤهم المصريون الذين ولدوا ١٩١٨) ، أما أسماؤهم الرسمية الكبيرة فكانت تضم أسماء عربية إسلامية : محمد طلعت باشا (١٨٧٤- ١٩٢١) وإسماعيل أنور باشا (١٨٨١- ١٩٢٢) وأحمد جمال باشا (١٨٧٢- ١٩٢٢).

المآسي التي ارتكبتها القادة العسكريون

من المستحيل أن نستطيع تصوير المآسي التي ارتكبتها هؤلاء القادة العسكريون الذين حكموا الدولة العثمانية حكما شموليا منذ ١٩٠٩ ، فالأمر يتطلب مُجَدّات كبيرة لتكشف مدى اندفاعهم الدائب والمتكرر للخطأ كأنهم خُلقوا ليُخطئوا، لا لأي شيء آخر ، و مع هذا فإني سأكتفي بذكر أمثلة دالة على مدى الجرائم التي ارتكبوها والنتائج الكارثية التي تحققت على أيديهم.

ضياع البوسنة والهرسك

في أول أعوام حكمهم استطاعت إمبراطورية النمسا أن تستحوذ من هؤلاء القادة الأشاوس ذوي الخلفية العسكرية على البوسنة والهرسك دون أي جهد يُذكر.

الهجوم الإيطالي على ليبيا

وفي ثالث الأعوام هاجمت إيطاليا ليبيا فتصدّى لها الشعب الليبي وهرع إلى عونه المتطوعون المسلمون ، لكن القيادة الانقلابية كانت بعيدة عن أن تُحقق أي نصر مُتدرّعة بطول المسافة وُضعف الاتصال.

خروج العثمانيين من البلقان

وجاءت الضربة الثالثة حين تحالفت صربيا والجبل الأسود واليونان مع بلغاريا (وهي ممالك صغيرة أو أصغر من الصغيرة) فاستطاعت ان تُخرج الدولة العثمانية من البلقان ولا تترك لها في البلقان إلا مدينة أدرنة ، بل إن هذه الحرب التي لم يكن لها أن تمضي على هذا النحو لولا تخاذل قادة العسكر وحُبهم للانهازم قد أدت إلى أكبر موجة هجرة جماعية حتى ذلك الحين ، حيث هاجر أربعمئة ألف مسلم إلى داخل تركيا خوفا من المذابح العسكرية التي كانت شائعة في أوروبا في ذلك العصر.

التورط في نزاعات الأرمن

ومن ناحية رابعة فقد اندلعت على يد هؤلاء الانقلابيين المواجهات أو المعارك التي سُمّيت فيما بعد ذلك بمذبحة الأرمن، وعلى الرغم من أن الأرمن عاشوا في الدولة العثمانية بسلام طيلة قرون، فإنهم على يد العسكر الانقلابيين انزلقوا إلى هذه المحنة التي لا يزال بعض الساسة في دولتين غربييتين يستغلون قصتها (المصنعة) ضد الدولة العثمانية ، وضد الأرمن أيضا من دون أن ينتبه الأرمن إلى أن كثرة الحديث في هذا الملف تشوه صورتهم الذهنية تماما ، بينما كانت في البداية والنهاية قرارا عسكريا انقلابيا يمكن فهم مبرراته .

التهور بدخول الحرب العالمية الأولى

وخامسا فإنه على يد هؤلاء العسكر الانقلابيين اندفعت الدولة العثمانية دون أي مُبرر لدخول الحرب العالمية الأولى ، لا لشيء إلا لتنتحر بصوت مدوٍ على نحو ما فعل الرئيس عبد الناصر في ٥ يونيو ١٩٦٧ ..

معنى تسمية الاتحاديين

بقي أن نشير إلى أن هؤلاء الانقلابيين كانوا يُسمّون أنفسهم بالاتحاديين نسبة إلى جبهة الاتحاد والترقي، وهي تسمية مُخادعة دوما لا يتسمّى بها إلا من يسعى إلى الخلاص من الوحدة من أجل الطائفية.

الفصل الثالث

كيف كان الانقلاب على السلطان عبد الحميد

سببا في الحرب العالمية الأولى؟

كان الانقلاب العسكري التركي على السلطان عبد الحميد أول الانقلابات العسكرية التي شهدتها العصر الحديث، وكان السبب الرئيس في نجاح هذا الانقلاب هو خوف السلطان عبد الحميد ١٨٤٢-١٩١٨ من الله سبحانه وتعالى إذ كان مع تقدم سنه في طاعة الله يخشى أن يلقاه بدماء بعض من المسلمين الذين سيقتلهم النزاع مع أي منقلبين بالسلاح و الغدر ، ولم يكن هذا السلطان يدرك أن خوفه هذا سيقود إلى مذابح ومجازر يقوم بها هؤلاء الذي خاف الله هو نفسه فيهم لكنهم لا يخافون الله وأن هذه المذابح ستسفك من دماء المسلمين الأبرياء أكثر من مائة ضعف من أرواح المنقلبين الأشقياء.

هل كان وأد المحاولة الانقلابية ممكنا

و الظاهر لنا من نصوص التاريخ أنه كان من المستطاع أن يتم وأد المحاولة الانقلابية التي قامت بها جماعة من الضباط الذين اعتنقوا من أجل تنفيذها فكرة براءة ذات وجوه متعددة من الاتحاد والترقي و التنريك و الإصلاح السياسي، فهي بصياغتها المراوغة كانت ترضي الأتراك بالتنريك من ناحية ، وترضي القومييين الآخرين ضمنا بالانتصار للقومية أياً ما كانت القومية، وترضي العلمانيين بالخروج من ذمة حاكم مسلم قوي، وترضي العسكريين بإعطائهم سطوة في أمور الدولة على نحو كانوا قد جربوه من قبل واستمتعوا به في تمرد الانكشارية لفترة قصيرة.

الاضطراب أصاب التوازن الدولي بسبب حكم الاتحاديين

كانت نتيجة الانقلاب العسكري في داخل الدولة العثمانية مخيبة للآمال على نحو لم يصل أحد إلى إدراك المدى الذي وصلت إليه، أما في خارج الدولة العثمانية فإن هذا الانقلاب كان هو السبب الأكثر إسهاما في الاضطراب الذي أصاب التوازن الدولي منذ ذلك الحين عبر حربين عالميتين و حرب باردة و نزاعات متكررة كما أنه كان السبب المباشر في إشعال الحرب العالمية الأولى وكل ما ترتب عليها من

المآسي التي لم تكن الإنسانية قد شهدتها من قبل على المدى الممتد لعمر الكائن البشري على وجه الأرض.

وفي خارج تركيا مركز العثمانيين فإن تشجيع الأوربيين لسياسات "نصف الاستقلال" أدي بسرعة مفهومة إلى ازدهار نزعات و نزاعات قومية تدميرية على نحو ما حدث في الحرب العالمية الأولى التي حدثت بتسارع كان متوقعا من مشاعر متناقضة على أطراف الصراع جعلت براميل البارود تنفجر ، بسرعة وتعاقب ، واحداً وراء الآخر.

نموذج لتأجيج العداوة في بلاد الشام

لعلنا نبدأ بأحاديث خاطفة ومضيئة عن أثر هذا الانقلاب في الشام أو المنطقة السورية (الكبرى) المتاخمة لتركيا حيث صال جمال باشا السفاح وجال بديكتاتورية (أعاد تجديد ذكراها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين الرئيس جمال المسمى على اسمه) ووصل الأمر بجمال باشا السفاح أن أعدم الزعماء الوطنيين جماعيا بعد محاكمات عسكرية الطابع كررها كثيرون من العرب بعده في العراق وسوريا والسودان وكل الدول التي ابتليت بوباء الانقلابات التي تستحضر للسلطة شخصيات ضيقة الأفق (مهما كان الأمر في الوطنية أو مُثلها أو نواياها أو اضطراريتها أو ظرفها التاريخي) .

المأساة التي خلقها حكم الاتحاديين في سوريا

إذا كان من قول واحد يلخص مأساة هذا الحكم العسكري في سوريا، والذي بلورته هذه الإعدامات المجرمة فهو مطلع قصيدة بسيطة قالها فارس الخوري الذي عاش حتى سنة ١٩٦٢ حيث قال: "الحظ قدمهم وأخرني" أي أنه كان معرضا لما تعرض له رفاقه من الوطنيين من الإعدام لولا أن أجله لم يكن قد حان بينما كان أجلهم قد أتى. وما من عائلة سورية أو لبنانية أو فلسطينية لها علاقة بالسياسة إلا كان لها نصيب في هذه الإعدامات التي تُنسب حتى يومنا هذا إلى الدولة العثمانية أو العثمانيين أو الأتراك ولا يُعنى أحد بنسبتها الحقيقية إلى الانقلابيين أو الانقلاب العسكري أو حاكم سوريا السفاح جمال باشا الذي لقي مصرعه في النهاية على يد الأرمن، ومع أن جمال باشا لم يكن هو الشخص الأول في الانقلاب وإنما كان طلعت

باشا فإن جمال باشا كان أكثر الثلاثة توحشاً وإجراماً ودكتاتورية وسوء مصير أيضاً. ومن العجيب أن رفيقه في الانقلاب أنور باشا تاب فرزق الشهادة وهو يدافع عن وطنه.

مرحلة من فقدان التوازن

نأتي إلى ما يهيم العالم بأكثر مما يهمننا، وبالتحديد إلى ما يهيم العالم من شأن أوروبا لا من شأننا نحن العرب، فقد جاء هذا الانقلاب بعد فترة طويلة من الاتزان الدولي في القرن الثامن عشر، وهو التوازن الذي حافظت عليه في الدرجة الأولى حكومة الملكة فكتوريا في بريطانيا طيلة ٦٤ عاماً فيما بين ١٨٣٧ وحتى وفاتها ١٩٠١ وهي أطول فترة للملكية في بريطانيا حتى وقتها (وحتى تخطتها الملكة إليزابيث الثانية فقط في ٢٠٠٦)، وكانت هذه السياسة كفيلة بضبط موازين القوى بين ثنائية الروس والعثمانيين وكذلك بين ثنائية العثمانيين والنمساويين وبين ثنائية الروس والنمسيين وبين ألمانيا وكل من هذه الثنائيات الثلاث.

وفي الوقت الذي كانت بريطانيا بحكم سيادتها على البحار قادرة على ضبط هذه المعادلات والتوازنات فإن فرنسا التي كانت لا تزال تعاني الاضطرابات التي خلفها نابليون في العلاقة بين أجنحة السلطة وبين الطموح والقيم كانت بطريقة غير مباشرة تجدد الحاجة إلى هذا الاتزان بما كانت تصنعه من أجل هزه وإنهائه أي بما كانت تصنعه من التأليب المستمر للقوى الإقليمية الصغيرة ضد الكيانات الكبيرة.

أصابع فرنسا لم تكف عن تأليب الصرب والبلغار

والحقيقة أن أصابع فرنسا كانت موجودة على الدوام في تأليب الصرب وبلغاريين على العثمانيين من ناحية وعلى النمسيين من ناحية أخرى وعلى الروس من ناحية ثالثة، وكانت بريطانيا بنزعتها الاستعمارية وقدرتها الإمبريالية قادرة على تعديل التوازنات بما يصب في مصلحتها في النهاية وكانت مصلحتها تميل تماماً للاستقرار و نحن نلاحظ ان كفة الرأي البريطاني كانت ترجح كثيرا حيث كانت فرنسا تقبل بأية ترضية حتى ولو معنوية.

عودة فرنسا إلى تذوق الانتصار بتحالفها مع العثمانيين

ومن العجيب أن فرنسا منذ ثورتها في ١٧٩٨ ثم عصر نابليون وحروبها ومعاركه لم تذوق طعم الانتصار إلا حين تحالفت مع العثمانيين والبريطانيين (ومعهم مصر وتونس) في حرب القرم ضد روسيا، وكان هذا النصر بمثابة بداية لعصر جديد من الرضا على الذات شعرت به فرنسا واستلذ به الفرنسيون.

الخداع الفرنسي في مواجهة الواقع

أما الصرب والسلاف والبلغاريين واليونان والأرمن فقد عاشوا عقوداً متصلة من التمزق في الشعور الوطني بين هذا الخداع الذي خدعتهم فيه فرنسا ومثيلاتها بالثورة على العثمانيين والتخلص من حكمهم أو من انتماهم لمنطقة العثمانيين الجغرافية (وهو ما تكرر مع النمساويين ومع الروس) ، وبين ما صادفته شعوب الصرب والبلغاريين والأرمن واليونان من الروح الاوربية التي سيطر عليها طابع نكث العهود والبعد عن تحقيق أي تعاون أو مساندة تنموية أو أخلاقية لهذه الشعوب التي دُفعت مرة بعد أخرى إلى التمرد المسلح على العثمانيين تحت دعوى اختلاف الدين ، ثم لم تجد من المشتركين معها في الدين إلا صوراً متكررة من الاستعلاء والعنصرية والمباهاة بالعرق وتفوق الجنس.

الاوربيون و دعم النزعات الانفصالية

كان العثمانيون بحكم تعاليم دينهم لا يمانعون في الإحسان للجار غير المسلم ما دام قد كفَّ عنهم شرّه، لكن الأوربيين وفي ظليعتهم بعض القوى الفرنسية كانوا بحكم تمكنهم من الثقافة والمسرح والكتاب ولغة التعليم يجددون مشاعر الكراهية للعثمانيين و المسلمين عند هذه الشعوب والقوميات المحيطة بالدولة العثمانية أو التي كانت جزءاً منها طوال عقود ممتدة. وبوسعنا أن نقدم قائمة بالفتنات التي حكم فيها العثمانيون المساحات القومية التي أصبحت الآن دولاً مستقلة لنرى أن نهاية حكم العثمانيين لهذه "الدول القومية" على حد ما أصبحت تسمى لم تكن نتيجة حروب حضارية حقيقية أو حروب دينية حقيقية ، وإنما كانت في حقيقة الأمر نتيجة للتطوير المتسارع لنزعات انفصالية (باستغلال ضعف او مشكلات الدولة المركزية في إسطنبول) .

و مع أن معظم هذه النزاعات العتيقة والنزعات الانفصالية كان من الممكن احتوائه فإن إلحاح الأوربيين ركز على دعم دوافع الانفصال التام عند هؤلاء المتمردين، وقد حدث هذا وتكرر في صربيا وفي الجبل الأسود وفي كرواتيا ومقدونيا واليونان ورومانيا وبلغاريا ومولدوفا ثم تفاقم على نحو متكرر من دون أن ينتبه أحد إلى الحقيقة المرة التي حدثت بالفعل .

الفصل الرابع

القائد التركي الانقلابي الذي دمر ما بناه عشرون خليفة عثمانيا

شخصية جمال باشا السفاح

هذا القائد هو جمال باشا السفاح، وهو أحد الضباط الثلاثة الذين اغتصبوا قيادة الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة فأوردوها موارد التهلكة وقضوا على كياناتها المترامي الأطراف من أجل أن يُجيدوا السيطرة على مساحة صغيرة تتناسب مع قصر نظرهم و يُمارسون فيها قهر العسكر وديكتاتوريتهم المُتناهية على نحو ما يُمارسونها في المُعسكرات.

خفت ذكرُ هؤلاء الثلاثة مع التاريخ ومع مرور الزمن وإن لم يخُفت أثرُ ضررهم البالغ الذي ألحقوه بالإسلام ودولة الإسلام وبالأتراك ودولة الأتراك وبالعرب وبشعوب العرب، فقد استطاع هؤلاء الثلاثة أن يُقحموا الدولة العثمانية في مُواجهات مُتكررة (ولا نقول حروب) تكفلت بتمزيق أوصالها لا فُقدان أطرافها فحسب.

وإذا قيل إن الأشرار يتفاضلون أو يتمايزون في الشر حتى يُصبح أحدهم مُتفوقا على زملائه في الشرور، فإن جمال باشا السفاح يتجاوز في شروره وسيئاته وإخفاقاته وإجرامه أضعافا مضاعفة من شرور زميليه طلعت باشا وأنور باشا. كانت ألقاب المواجهة العسكرية التي واكبت الحرب العالمية الأولى، أن ميدان المُواجهة الأول سيكون في بلاد الشام لأسباب جُغرافية ولأسباب تاريخية وعقيدية كذلك، فلم يكن هناك هدف أوربي واضح من الحرب يمكن تسويقه على المستوى الشعبي إلا الخلاص من آثار هزائم قديمة، أو الثأر لهزائم سابقة..

المواجهة في الشام و محاولة بعث حروب صليبية

وكان الدافع الوحيد الذي يُمكن إقناع العسكريين الفرنسيين مثلا (أو الإنجليز) بأهميته للاندفاع إلى المشاركة في الحرب هو استئناف طراز أقرب ما يكون إلى طراز الحروب الصليبية القديمة التي لم تخفق قياداتها فيها في أوربا ذاتها ، وإنما حققت هزائم مُتكررة أمام الشرق العربي بمسيحيه ومُسلميه معا و على حد سواء، وهكذا كان على أية قيادة استراتيجية في الدولة العثمانية سواء كان أمر هذه القيادة بيد الخُلفاء التقليديين أو بيد العسكر المُنقِلين (بدءا من ١٩٠٩) أن تُؤمن الوجود العثماني في سوريا الكبرى بشواطئها المُطلّة على البحر الأبيض المتوسط ، حيث يُتوقع أن تأتي القوات البحرية البريطانية أو غيرها من البحريات الأوربية من هذا الجانب أو ذلك ، أي من جانب بريطانيا وخُلفائها أو من جانب ألمانيا وخُلفائها.

إسناد القيادة إلى جمال باشا

ولأن الأمر في سوريا كان أكبر من أن يتولاه قائد محلي ، فقد رأت القيادة الانقلابية أن تُسند هذه المهمة في حكم سوريا وقيادة الجبهات المُتصلة بها إلى جمال باشا، وقد كان هذا القرار هو أسوأ قرار يُمكن اتخاده في مثل هذه الظروف بحُكم ما يعرفه الزُملاء عن بعضهم البعض من طبائع وأخلاق وقُدرات وسجل كفاءة وطابع نفسي في الحكم على الأمور.

وفي ١٩١٥ أُسندت إليه قيادة سوريا الكبرى وبلاد الشام ، تمهيدا للمواجهة المُتوقعة في سوريا وعبر قناة السويس إلى مصر

القرار كان مُناقضا تماما لما هو مطلوب

وعلى حين كانت المهمة التي كُلف بها جمال باشا في سوريا تتطلبُ شخصية محبوبة استيعابية قادرة على تجاوز الخلافات من أجل الهدف الأسمى أو النصر المطلوب ، فقد كان جمال باشا بطبعه وتاريخه وطبيعته مُناقضا لما هو مطلوب على طول الخط ، كان دمويا عنيفا على نحو ما كان عصبيا في قراراته ، حادا في انفعالاته ، مُتسرّعا في خُطواته وكان قد وصل في رُتبه العسكرية إلى أعلى الرُتب ، فكان سردارا وهي رتبة تُوازي الفريق أول ، وقد توالى مهامه العسكرية والسياسية على نحو أكبر من طاقاته وقدرته، ففي ١٩٠٨ شارك في قيادة الانقلاب على السلطان

عبد الحميد وفي ١٩١٣ شارك في الانقلاب العسكري التالي المعروف بالانقلاب العثماني ١٩١٣ وتولى منصب وزير الأشغال العامة ١٩١٣ ثم تولى منصب وزير البحرية في العام التالي ١٩١٤، و كأنه على موعد مع مهمته في تضييع الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى . وفي تلك الحرب بدأ مهامه بقيادة الجيش الرابع العثماني .

الكوارث التي نشأت في عهد قيادته

كان جمال باشا إذاً هو من تولى قيادة المعارك التي كانت السبب المباشر في انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وعلى سبيل المثال فإن المعركة حول قناة السويس لم تستمر إلا يوماً وليلة في ٢ و ٣ فبراير ١٩١٥، و كأنه كان يقدم إرهابات لما حدث مع سَمِيهِ الرئيس جمال في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و رُبّما يتخيلُ القُرّاء ظروف الجو التي وقعت فيها تلك المعركة ، وهي ظروف مواتية للانتصار، لكن جمال باشا بحماقته المعهودة لم يستفد منها أية فائدة ، بل بالعكس وقع في أخطاء مُتكرّرة لا تليق برُتبته ولا مكانته ولا سنّه..

اندفع بقواته عبر سيناء حتى أنهكها

لكن كل هذا يهون إذا علمنا أن كل انقلابي مثله لا يهّمه النصر وإنما يهّمه تأمين وجوده هو نفسه في السلطة ، حتى لو كان هذا على حساب أرواح جنوده، وسيادة دولته على أرضها، وهذا هو ما حدث بالفعل فقد اندفع جمال باشا بقواته عبر سيناء فوصلت إلى القناة مُنهكة تماماً دون أن تكون هناك تجهيزات لتأهيلها أو تعبئتها أو إمدادها في موقع المعركة، وكأنه يبعث بجنوده إلى الموت ليكونوا طعاماً للقوات المُعادية المُتربّصة بهم ، وهو ما حدث بالفعل ، حيث كانت مدافع الفرنسيين والبريطانيين تنتظر هذه القوات الواردة لتحصّدها أولاً بأول دون أن تُمكنها من عبور قناة السويس.

كيف قاد البريطانيون جنوداً مصريين ضد العثمانيين

ومع أن المواطنين المصريين كانوا حاضنة طبيعية كفيفة بأن تنصُر قوات الدولة العثمانية ، فإن جمال باشا لم يتّصل بهم لا من قريب ولا من بعيد ولا هو ألف معهم أي تحالف جدي ، ولا هو سلّحهم بل بالعكس فإنه ترك الجنود المصريين يُساقون

في الجيش الإنجليزي ليُكْمَلوا الأعداد المطلوبة للهجوم المكثف على القوات العثمانية في القدس وغير القدس، ولم يكن هؤلاء الجنود البُسطاء يعرفون أنهم يُحاربون ضد دينهم و ضد وطنهم ، وإنما كانوا على أكثر تقدير يعرفون أنهم يُحاربون ضد السّفاح الذي حكم سوريا بالحديد والنار وأعدم الوطنيين وقيد الحُرّيّات ونكل بالمشايخ والمُفكرين وعذبهم في سُجونهم حتى الموت ، بل وأتمّ مجزرتين من مجازر أحكام الإعدام العسكرية التي استهدفت المسلمين والعرب من المسيحيين الشرقيين لثبيد زعاماتهم الطبيعية في يومين مشئومين ٤ أغسطس ١٩١٥ و ٦ مايو ١٩١٦ في بيروت ودمشق .

ومن العجيب أنه أعدم هؤلاء بحُجّة تخايرهم مع البريطانيين والفرنسيين مع أنه بأفعاله وسياساته كان أكثر تدميرا للعلاقة العربية العُثمانية و أكثر إفادة للبريطانيين و الفرنسيين ، وقد بلغ الأمر بأحكام جمال باشا أنها كانت تصدُر بدون معايير أو إجراءات أو ضمانات وبدون هدف إلا زيادة العداوة والقضاء على كوادر القيادة الوطنية التي كان من المُمكن أن تُفيد الدولة العثمانية نفسها في حربها مع القوى الكبرى التي كانت تحشد كل ما تستطيع حشده من إمكاناتها ومعنوياتها على حد سواء .

مشاركة جمال باشا في معارك الأرمن

شارك جمال باشا السّفاح فيما عُرف تاريخيا بمعارك الأرمن ، وهي الأحداث التي كانت نشازا في سياق العلاقات الإسلامية بالمُخالفين في العقيدة ، لكنّها كانت تعبيرا مُتوقّعا من العسكريين عن خلقهم ، كما شارك في كل إجرام عسكري شهدته فترة الحكم العسكري الانقلابي ما بين ١٩٠٨ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩١٨ حين اكتشف العثمانيون أن العسكريين الانقلابيين قد أوردوا الدولة العثمانية موارد التهلكة ، وأصبح أداء هؤلاء الانقلابيين العسكريين أبرز مثل على أن الحرب لا ينبغي أن تُترك في أيدي العسكريين ، فها هي الدولة التي قادها خلفاء تقليديون أوتوا حظا من الإسلام والوطنية والقيادة تُحافظ على نفسها ستة قرون كاملة ، حتى إذا ما تولّوها العسكريون سقطت وتدمّرت في تسع سنوات فقط .

الفصل الخامس

كيف ذبح الانقلاب العسكري المسلمين بالاندفاع الى الحرب العالمية

كانت الدولة العثمانية طيلة القرون التي عاشتها بمثابة أكبر نقطة اتزان وتوازن بين الممالك الأوروبية التي كانت تحكم العالم القديم : روسيا وبريطانيا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا وبين الممالك الصغيرة التي كانت ترتبط بهذه الإمبراطوريات الكبيرة .

استدعاء التارات التاريخية

لم تحدث الحرب العالمية الأولى مُصادفة ولا من قبيل رد الفعل الفوري على مقتل ولي عهد النمسا والمجر في سراييفو ، وإنما كانت هذه الحادثة هي القشة التي سببت استدعاء التراث التاريخي من العداوات والتأثر القديم التي كانت تتجدد في التراث الشعبي ومن ثم في العقيدة المُستترة للجنود والقادة الأوربيين على حد سواء.. وكانت فرنسا وإنجلترا قد بدأتا اللجوء إلى سياسة التحميس قبل المواجهة وهي سياسة كانت كلتاهما أو إحدهما تدفع بها دولة من الدول أو جماعة من الجماعات إلى بدء الحرب على وعد بدعمها الكامل ، وذلك حتى لا تظهر أي من الدولتين المحمستين بميول استعمارية وتوسعية كانتا معروفتين بهما وكانتا مثار تملل متكرر من الأوربيين ، بل من الأمريكيين ، على الرغم من بُعد المسافة، مع أن هؤلاء الأمريكيين كانوا يُمثلون في ذلك الوقت الخط الخفي..

تعاقب سريع غير متوقع

وهكذا فإن روسيا التي أصبحت حتى تلك اللحظة أكبر لاعب مُحتمل في الحرب العالمية الأولى لم تدخل الحرب العالمية الأولى إلا بناء على تحميس فرنسا لها ، أما السبب المُعلن لدخول روسيا الحرب فكان أنها تقف مع صربيا ضد هذا الاعتداء الذي تُواجهه من الإمبراطورية النمساوية المجرية..

و ببساطة شديدة وبلغت تبدو غير دقيقة تماما ، لكنها تكفل التذكر والفهم ، فإن فيينا أعلنت الحرب على بلغراد فرأت موسكو أن تدعم بلغراد بناء على تحميس باريس ثم لندن .

على كل حال ، فقد كانت هذه هي العقلية التي حكمت هذه الدول الكبيرة وهي تُمارس استعراض عضلاتها على النمسا، بينما لم يكن للنمسا من حليف حتى تلك اللحظة.. وكان من الطبيعي طبقا لسياسة المحاور وردود الأفعال أن تطلب النمسا معونة ألمانيا التي استجابت لها ، وكذلك فعلت بلغاريا التي كانت تحكم علاقتها مع صربيا عداوة تاريخية من عداوات أولاد العم التقليدية .

ومن الطريف أن صربيا وبلغاريا عاشتا فترة سلام طويلة جدا في ظل الدولة العثمانية فلما عرفنا النصائح الاوربية و الفرنسية كانت النتيجة أن أصبحنا أول وقود للحرب العالمية الأولى .

لم يكن للدولة العثمانية أية مصلحة في الحرب

كانت الدولة العثمانية لا تزال بعيدة عن المعركة وليست ذات مصلحة فيها ، أو لا ناقة لها فيها ولا جمل على نحو ذلك التعبير الجميل الذي أطلقه الشيخ المراغي بعد ربع قرن ، لكن طبائع و مطامع العسكريين الثلاثة الذين كانوا يحكمون الدولة العثمانية بانقلاب عسكري متطور ١٩٠٨/١٩٠٩ والذي انتهى بحكم هؤلاء الباشوات الثلاثة طلعت وأنور وجمال منذ ١٩١٣ بعد أن كانوا قد عزلوا السلطان عبد الحميد في ١٩٠٩ وأحلّوا محله أخاه السلطان محمد الخامس الذي كان على سبيل المثال بمثابة الرئيس عدلي منصور (٢٠١٣) أو الرئيس أحمد الخطيب في سوريا (١٩٧١) رأى هؤلاء العسكريون أنها فرصة لهم لممارسة أعلى ما في السياسة من صلاحيات وهو قرار إعلان الحرب ، وظنوا ان هذا من حقهم باعتبارهم قد جلسوا على الكراسي ، و كأنهم لم يكونوا يُدركون أن دخول الحرب قرار أكبر من العسكريين ، وأنه يتطلّب كثيرا من التأمل والفهم والتقدير الذي لم يكن لهم من حظوظها جميعا قدر كاف.

ومع هذا فإن العسكريين الانقلابيين بحكم افتقارهم إلى الشرعية وبحكم حداثتهم في الصورة السياسية الدولية لم يكونوا قادرين على أن يظهروا في المشهد على نحو مُشرّف يُوازي ظهور ملك أو إمبراطور أو رئيس أو قيصر وهو يُعلنُ الحرب، وهكذا بدأت مشاركتهم في الحرب متسمة بما يتسم به الأداء الانقلابي دوما وفي كل مكان من اللجوء إلى واجهات ضيقة في الخطوات الواسعة ، واللجوء إلى واجهات

كبيرة في الخطوات الضيقة، بل إن هؤلاء العسكر الانقلابيين قدّموا مبررات غير مُتناسبة مع قرارهم بالمشاركة في الحرب..

المثل الشبيه بتصرفات الانقلابيين الأتراك

وإذا كان هناك من مثل شبيه بما فعله هؤلاء القادة في دخولهم الحرب العالمية الأولى ، فإنه هو سياسات الرئيس جمال عبد الناصر في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ التي تكاد تكون صورة طبق الأصل من الخطوات التي انتهجها الانقلابيون لدخول الحرب في ١٩١٤ من دون الوعي الكافي بأنهم يدخلون إلى حرب عالمية قد يفقدون فيها الإمبراطورية التي رفعت من قيمتهم وجعلتهم في هذه المكانة.. ومع أنهم مدينون لسعة صدر الدولة والشعب ، فإنهم لا يعرفون قيمة ولا خطورة المواقع التي أصبحوا يحتلونها سواء على مستوى الدولة أو العالم المسكون في تلك الفترة من التاريخ.

قادة الانقلاب يزايدون بالغاء الامتيازات الأجنبية

أعلن قادة الانقلاب العسكري التركي إلغاء الامتيازات الأجنبية التي كان القوميون الأتراك يُطالبون من باب المزايدة بالغائها.. وكان العقليّة الانقلابية تعتمد على إثارة المشاعر القومية بمثل هذا القرار في أخرج اللحظات التي لا تُناسب إعلان قرار من هذا القبيل بما يُمثله من الاستفزاز وما يُؤدي إليه من ابتزاز أصحاب الامتيازات أنفسهم..

وقد فعل الصدر الأعظم هذا كله وكأنه نسخة مبكرة من الرئيس عبد الناصر حين أمم قناة السويس وجّهز الأغاني والأهازيج التي تتحدث عن أن هذا التأميم كان ردا على تخاذل الأمريكيين والبنك الدولي في تمويل بناء السد العالي، وبالنسبة للانقلابيين الأتراك فقد كانت عقيرتهم ترتفع في تلك اللحظة بذكر تخاذل البريطانيين والفرنسيين عن تمويل موازنة الدولة العثمانية بالقروض الكفيلة بدعم خزينة الدولة ، رغم محاولات التقارب التي بذلها هؤلاء الانقلابيون مع فرنسا وبريطانيا.

صورة طبق الأصل

لا يعجبني القارئ من هذا السلوك الناصري المُبكر عند قادة الانقلاب العسكري التركي في ١٩١٤ ، ولا يعجبني القارئ من هذا السلوك "الاتحادي" المُتأخر عند عبد الناصر في ١٩٥٦ . وننتقل إلى التطوّرات فنجد الصدر الأعظم (أي رئيس الوزراء

التركي الانقلابي) يمضي خطوات واسعة شبيهة بما عرفناه من الخطوات الانقلابية العربية المُعاصرة، وإذا به يُعلن إغلاق المضائق في وجه الملاحة التجارية وكأنّه عبد الناصر في مايو ١٩٦٧ ، وإذا به أيضا يُلغي مكاتب البريد الأجنبية.

التورط سبق إعلان الحرب

ولم يكن الأمر بعد هذا بحاجة إلى إعلان حرب صريح ، فها هي الدولة العثمانية على يد انقلابيها قد تورّطت بما فيه الكفاية فدخلت الحرب من دون شموخ الفارس المحارب القوي الذي يدخل الحرب رافعا رأسه، وإنما هي دخلتها دخول من يُظهر غير ما يُبطن، ويرفع شعارات تتناقض مع سياسته حتى تأتي لحظة تفرض عليه أن يعترف بما كان في نيته.. وقد جاءت اللحظة سريعا حين حقّق الألمان انتصارات رائعة مُتتالية على الروس، فأصبح من المقبول دعائيا وشعبيا أن ينضم الانقلابيون إلى الألمان المُنتصرين، وليس إلى النمساويين والمجريين الذين كان عندهم مُبرر لشنّ الحرب انتقاما لمصرع ولي عهدهم (!!)..

كانه حضور للمهرجان

هكذا جاء دخول الدولة العثمانية للحرب كأنه حضور للمهرجان بعد الانتصارات الألمانية على روسيا، وقد رأى هؤلاء الانقلابيون بقصر نظرهم أن يُهاجموا الموانئ الروسية في البحر الأسود وعند ذاك لم يكن هناك بدّ أمام الروس من أن يُعلنوا الحرب على الدولة العثمانية.. ومن ثم كان لا بد للسلطان السوري محمد الخامس (١٨٤٤ - ١٩١٨) أن يُعلن الحرب ردا على إعلان روسيا الحرب ، بينما كان كثير من رعاياه في الهند ومصر وإفريقيا قد أُجبروا على دخول الحرب منذ شهور في جانب بريطانيا وفرنسا بطرق ملتوية.

إعلان الحرب كان مُبشّرا بنهاية الدولة

وكان إعلان الحرب على هذه الطريقة مُبشّرا بنهاية الدولة العثمانية ، على الرغم من كل البسالة التي ظهرت من جنودها المُخلصين وضباطها الأفاضل.. لكن هذا كله لا يُجدي مع قيادة عليا تتمتع بالرعونة وتفقد الخبرة السياسية والشرعية معا.

الباب الثاني

التحريض الغربي للأرمن واليونانيين

الفصل السادس

أسرار الاتهام الأرمن بمذبحة الأرمن

هل تؤذي أرمينيا تؤذي نفسها؟

نبدأ بالقول بان خسارة الأرمن ودولة أرمينيا من الاستدعاء للأخير للحديث عما يسمى بمذبحة الأرمن يفوق بمراحل حجم الإيذاء الموجه إلى تركيا ، و من المفهوم بالطبع أن العرقلة المخططة والمتكررة للصعود التركي الواصل هو الهدف الغربي الأول من الاستدعاء المفعل لقصة مذبحة الأرمن ، ومن الحرص على تكرار فتح هذا الملف بهذه الطريقة المكشوفة في التناول والمقاربة ، و بدون نفي لمضمون القراءة التي أدركها الجميع بسهولة فإننا نرى أن الهدف لا يقتصر على تركيا ، ولكنه يمتد ليشمل دولة أرمينيا نفسها (أقل من ٣ ملايين نسمة) التي بدأت تتأذى وستأذى من هذا الموضوع أكثر من تركيا .

الأسباب الكفيلة بإيذاء أرمينيا

- السبب الأول أن أرمينيا ستواجه دون رغبة ولا تخطيط تأجيجا في عداوة أفراد شعب كبير العدد واسع الانتشار كالشعب التركي (٨٠ مليون) حين يستعيد ذكريات خيانة الأرمن وغدرهم بالوطن الكبير .
- السبب الثاني أنها قد تعاني من توهين مفاجئ في علاقتها الصاعدة بتركيا في عهد الرئيس أردوغان ، وهي العلاقة الطبيعية الأولى بالرعاية ، فمثل تركيا بالنسبة لأرمينيا كمثل ألمانيا بالنسبة لسلوفينيا ، مهما كان تاريخ العلاقة والإحن والمحن ، وحين تبلغ الشعوب والدول مرحلة النضج ، فإن تأثير استعادة التارات القديمة ينحو إلى الضعف لكنه مع الإلحاح يغدو بمثابة عامل استفزاز للأعصاب واستتارة للمشاعر.
- السبب الثالث أن الطريقة التي يعرض بها الموضوع الآن تستهدف إفادة غربية من تعميق النزاع القائم بالفعل بين أذربيجان وأرمينيا وهو موضوع طويل .

هل يتغلب الحقد على الأفق الإسلامي؟

لا يقف الأمر عند حدود أرمينيا ، لكنه سيمتد إلى كل من ينخدع في الملف من العسكر و الطغاة الحاقدين على تركيا الحالية أو على تركيا ذات الأفق الإسلامي في الماضي والمستقبل ، و ستكون النتيجة أن خيبتني الأمل العاجلة و الأجلة ستصيبان كل من يرقص بلا روية في هذا الموضوع مندفعاً من الظن بأنه سينال مصداقية أو سيحصل على مزيد من التعاطف في مجال العلاقات الدولية وسيجد أن العكس هو الصحيح ، فالملف نفسه جزء من مساومة وليس جزءاً من حقيقة ، كما أنه موقوت الهدف وليس دائم الطابع ، و قد قيل فيما حول واشنطن في وقت من الأوقات : إن المهمة الاستخباراتية الأمريكية الأولى هي المحاربة الهادئة من أجل إحباط الأصوات الانتخابية المسلمة ممن توجهت له و مكنته من الفوز في الصناديق ، وهو ما يعني أنه إذا تصادف أن رئيساً غربياً فاز بالرياسة وكان لأصوات المسلمين دور مؤثر في هذا الفوز فلا بد من المسارعة إلى دفعه دفعا حثيثاً وبطريقة غير مباشرة إلى تكرار القول بتصريحات معادية لحلفائه الطبيعيين من مواطنيه المسلمين تجعل هؤلاء المسلمين يندمون على وقوفهم معه ، وتجعلهم يؤثرون العودة إلى السلبية والعدمية .

نتيجة التحقيق لم تكن في صالح الأرمن

وننتقل إلى موضوع المذبحة نفسه الذي قتل بحثاً فكانت نتيجته في غير صالح الأرمن و بخاصة مع تكرار الإلحاح الإعلامي عليه ، و على سبيل المثال فإننا في مصر اضطررنا إلى إحياء الحقيقة القائلة بأن الأرمن كانوا هم الطائفة الوحيدة التي خانت المصريين في ثورة ١٩١٩ بينما كان الإنجليز المقيمون في مصر يلتزمون الحياد ولم يسلكوا سبيل التآمر مع عسكر الإنجليز المحتل .

الأرمن أخذوا بأكثر من الثأر

كذلك فقد ذكرنا كثيراً أن ثأر الأرمن من الأتراك بسبب هذه الأحداث قد اكتمل و تم على نحو لم يشهد التاريخ له مثيلاً ، و حقق لهم بلغة الثأر كل ما يبتغون ، إذ استطاع الأرمن مبكراً و وفق خطة صارمة قتل كل القادة العسكريين الأتراك الذين أمروا بما يسمى مذابح الأرمن بلا استثناء .

الدور المحوري الذي تؤثر به إسرائيل

ومن الجدير بالذكر أن الاستثمار الغربي للمذبحة لا يتوقف إلا عندما يكون لإسرائيل مصلحة عند تركيا ، وقد ظل هذا الملف على الدوام من الملفات التي تلتزم إسرائيل فيها باتفاقها مع تركيا على العمل على تبريد الملف .

تعريف المذبحة بالأسلوب المهندس أمريكي

قلنا كثيرا إن التعريف الأمريكي لمذبحة الأرمن يعتمد على المُبالغة الخاطئة فنحن نعرف بكل وضوح أن الحرب العالمية الأولى انتهت بزوال الدولة العثمانية على يد الاتحاديين الانقلابيين من داخلها وعلى يد الحلفاء من خارجها ، بل هكذا تُردّد الأدبيات الغربية كلّها، فكيف تكون الدولة العثمانية مسئولة بعد زوالها عما حدث ؟ مع أن جمعية الاتحاد والترقي استولت على الحكم على خطوتين سريعتين ١٩٠٨ / ١٩٠٩ ومارست الحكم المطلق منذ ذلك الحين وقد كان الهمّ الأكبر الذي شغل العسكر الأتراك الانقلابيين بعد دخولهم الحرب العالمية الأولى هو مواجهة خيانة مواطنيهم الأرمن لهم ، حيث انضم بعض هؤلاء الأرمن بطريقة غادرة إلى الروس وقتلوا مواطنيهم المسلمين المدنيين في الأناضول الشرقية.. وهكذا رأى العسكر الانقلابيون بحكم عقليتهم العسكرية الصرفة أن ينشغلوا بتأديب الأرمن واتقاء شرهم ، وأن يُعلوا من شأن هذا الهدف على أي هدف آخر من قبيل أن يحموا حدود الدولة العثمانية في العراق وبلاد الشام والحجاز ومصر.

أصبح المصطلح العام مقصورا تماما على هذه الأحداث

قلنا إن من الملفت للنظر أن مُصطلح الإبادة الجماعية نفسه قد اخترع لوصف هذه الأحداث، بل نشأت جمعيات دولية باسم "الجمعية الدولية لعلماء الإبادة الجماعية" ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الجمعية وأمثالها لم تُعن على الإطلاق بما هو واجب أن تعنى به في ظل هذا الإلحاح الغربي الأخير الذي قد تضطره الظروف إلى مناقشة وإدانة ما حدث على يد العسكر الذين صنعهم الغرب ووجههم في مذابح العشرية السوداء في الجزائر أو في مذابح الأسد في سوريا أو في مذبحة رابعة وأخواتها في مصر.

الفصل السابع

هكذا تم الثأر منذ مائة عام لرعونة الانقلابيين الأتراك مع الأرمن

نحو لم يعرف التاريخ له مثيلا

ربما لا يعرف الذين يثيرون الحديث عما يسمى بمذبحة الأرمن أن ثأر الأرمن لهذه المذبحة قد تم على نحو لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وربما كان من المفيد إلقاء الضوء عليه ، و من ثم تشجيع السعي الدولي الجاد (وليس المنافق) إلى تطبيقه في كل مذبحة مماثلة ، تطبيقا لما قالت به التوراة وجاء القرآن الكريم مصدقا عليه.

ومع أننا لسنا بالطبع من أنصار أي دفاع عن أيّ مسئول عن أيّ مذبحة ، حتى لو كان ضحايا المذبحة شخص واحد فإننا معنيون في المقام التاريخي السياسي ببيان وجه المُغالطة في التعريف الأمريكي أو الغربي السائد الآن للحديث عن مذبحة الأرمن ، فهذا التعبير في سطره الأول يُشير بطريقة حصرية مُحدّدة إلى أن مذبحة الأرمن تُشير إلى "القتل المُتعمّد والمنهجي للسكان الأرمن من قبل الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى .."

الخطأ والمبالغة مطلقان وليسا كبيرين فحسب

وقد كررنا كثيرا أن في هذا التعريف قدر "مطلق" من المُبالغة الخاطئة ولا نقول قدر "كبير" من المُبالغة الخاطئة ، فنحن نعرف بكل وضوح أن الحرب العالمية الأولى انتهت بزوال الدولة العثمانية على يد الاتحاديين الانقلابيين من داخلها وعلى يد الحلفاء من خارجها ، بل هكذا تُردّد الأدبيات الغربية كلّها، فكيف تكون الدولة العثمانية مسؤولة عما حدث بعد زوالها ؟ بل كيف تكون حكومة مصطفى كمال أتاتورك أو حكومات تركيا في ١٩٩٠ أو ٢٠٠٠ أو ٢٠١٠ أو ٢٠٢٠ مسؤولة عن هذه المذبحة؟

لا تُنكر الأدبيات التاريخية الغربية أن جمعية الاتحاد والترقي استولت على الحكم ومارست الحكم المطلق منذ ذلك الحين ، كما مارست طيلة هذه الفترة العبث العسكري و الرهق السياسي حتى أضاعت الدولة العثمانية، لكن الاتهامات لا تُوجّه إلى حكم هذا الحزب السياسي / الجمعية ولا إلى أقطابها ولا إلى الانقلاب العسكري

التركي الذي حكم بموجبه الباشوات الثلاثة وإنما توجه إلى كيان انتهى هو الخلافة العثمانية .

كيف اندفع الانقلابيون الأتراك الى حرب الأرمن

وقد كان الهمّ الأكبر الذي شغل العسكر الأتراك الانقلابيين بعد دخولهم الحرب العالمية الأولى كان هو مواجهة خيانة مواطنيهم الأرمن لهم ، حيث انضم بعض هؤلاء الأرمن بطريقة غادرة إلى الروس وقتلوا مواطنيهم المسلمين المدنيين في الأناضول الشرقية.. وبدا بوضوح أنه قد تم استغلال الأرمن لهدم بنيان الدولة من خلالها وتهديد مقومات وجودها بينما هي في حالة حرب ، وهكذا رأى قادة العسكر الانقلابيون بحكم عقليتهم العسكرية الصرفة أن ينشغلوا بتأمين الجبهة الداخلية و ما قد يتطلبه هذا من تأديب الأرمن و اتقاء شرهم تأميناً لقواتهم في جبهات القتال الممتدة على نطاق واسع .

وليس سرا أن ملف هذه المذابح يستدعى عند الحاجة ليُهدد به كل تقدّم اقتصادي تُحقّقهُ تركيا، ويطوى الملف ، ويُخفى حين تكون تنمية تركيا فاشلة تحت حكم عسكري، وليس سرا أيضا أن أحد أسباب علاقة الساسة الأتراك بإسرائيل ، هو أنها توظف تأثيرها الدولي المعروف في تبريد ملف مذبحه الأرمن بما يُتيح الراحة للساسة الأتراك ، و بخاصة أن الابتزاز يتجدد، ولا يذكر العالم سماحة الإسلام و سماحة الدولة العثمانية طيلة ٥ قرون ، لكنه يُشهر في وجهها مسئوليتها الأدبية عن الضباط العسكريين الانقلابيين الذين آذوا تركيا نفسها و الأتراك بأكثر بكثير مما آذوا بعضا من الأرمن .

ولم يعد سرا أن الحرص على إيجاد دولة للأرمن تكون قلقة و مقلقة كان فكرة أمريكية صريحة نادى بها وحرص عليها الرئيس الأمريكي بنفسه في ظل اندهاش الساسة الأوروبيين ، ثم وجدت بعض جماعات السياسة المتعصبة في فرنسا في بعض الأحيان فرصتها في ركوب موجتها ، على نحو ما نرى من آن لآخر .

ضد سياق العلاقات الإسلامية مع المخالفين في العقيدة

من المؤكد أن هذه الأحداث كانت نشازا في سياق العلاقات الإسلامية بالمخالفين في العقيدة على مدى ستة قرون من حكم العثمانيين و ضعفها من حكم المسلمين ،

لكنها كانت تعبيراً مُتوقَّعاً من العسكريين و لم يكن أمامهم غيره مع ما هو معروف من إيمانهم بالعسكرية و الالتزام ، وما يقتضيه هذا من ضيق أفقهم و حدة خلقهم .

ومع أن العسكر الانقلابيين هم الذين أداروا ما سُمِّي بمعارك الأرمن، فإن المُجتمع الغربي لا يزال حتى هذه اللحظة يستثمر هذه الذكرى في التنغيص على تركيا المدنية الديمقراطية في لحظات تجليها السياسي وازدهارها الاقتصادي ، بل يتخايب هذا المجتمع في نسبة هذه المذبحة إلى الإسلام وربما إلى سياسي معاصر من قبيل أردوغان الذي لم يكن بالتأكيد قد وُلد حتى ذلك التاريخ، وربما لم يكن والده قد بلغ سن الرشد.. لكن الطريقة الإمبريالية في عداوة النجاح لا تجد مناصاً من سلوك هذا المسلك الانتهازي المُغالط من أجل استنزاف طاقة كل مجتمع ناهض في المعارك المشوهة للتاريخ الحقيقي .

ولو أن الانقلاب العسكري التركي الأخير على سبيل المثال كان قد نجح ما انفتح هذا الموضوع .

و من الثابت مرة بعد أخرى أن كل الحديث عن هذه المذابح يمتد ما بين ١٩١٤ و عام ١٩٢٣ ، حين كان حكم العثمانيين الفعلي قد انتهى بينما انتعش الحكم الانقلابي العسكري منذ ١٩٠٩ .

ورقة ضغط ضد أي تقدّم تركي مُستقبلي

وهكذا نفهم أن تجديد الحديث عما يسمى بمذابح الأرمن أصبح في حقيقته ورقة ضغط ضد أي تقدّم تركي مُستقبلي ، وقد كررنا التعجب من أن مُصطلح الإبادة الجماعية نفسه قد اخترع لوصف هذه الأحداث واقتصر عليها وحدها .

ومع أن الأرمن أنفسهم ثأروا لأنفسهم في وقتها، وكان بعض ثأرهم من خلال مذابح بشعة ، لم يتحدث ولن يتحدث عنها أحد كما انهم نجحوا في قتل كل القادة الذين أمروا بما يسمى مذابح الأرمن بلا استثناء .

نهاية حياة زعماء الانقلاب العسكري التركي على يد الأرمن

وعلى سبيل المثال ، فإن جمال باشا نفسه بل وطلعت باشا قائده أو قائد القيادة الثلاثية لقياً مصرعهما على يد الأرمن، وهو أقوى ثأر يُمكن إنجازه في مثل هذه المذبحة ، لكن الاستثمار الغربي للمذبحة لا يزال يجري على قدم وساق إلا أن يكون

لإسرائيل مصلحة عند تركيا ، فعند ذاك يخفّت الحديث عن مذبحه الأرمن التي كانت من ثمار سياسات وممارسات جمال باشا السفّاح وأقرانه.

وعلى الرغم من أن جمال باشا السفّاح قتل العشرات من خيرة رجال العرب ، فإنه لم يعاقب إلا بيد الأرمن ، وقد قُتل كما قتل كل طاغية انقلابي، وجاء قتله على يد أرمني معروف الاسم ضمن عمليات مُخطّطة ومهندسة ومُموّلة نفذها الأرمن كما أشرنا ضد كل القيادات العسكرية التركية التي شاركت في الأحداث التي سُمّيت بمذبحة الأرمن، التي لا يزال الغرب كما أشرنا يلوّح بها رغم أن الثأر قد تم بقتل القيادات كلها وفي مقدمتهم أكبر قائدين تُركيين وهما:

- الصدر الأعظم محمد طلعت باشا (١٨٧٤ - ١٩٢١) ، والذي شغل منصب وزير الداخلية (١٩١٣ - ١٩١٧) ثم أصبح الصدر الأعظم (١٩١٧ - ١٩١٨) وقد قتل عن ٤٧ عاماً في العاصمة الألمانية برلين على يد أرمني في ١٥ مارس ١٩٢١ .
- الفريق أول أحمد جمال باشا الذي لقبه العرب بالسفّاح (١٨٧٢ - ١٩٢٢) الذي قُتل بيد أرمني عن ٥٠ عاماً يوم ٢١ يوليو ١٩٢٢ في تبليسي عاصمة جورجيا .

الفصل الثامن

وإن حدثوك عن اليونان فقل إنها شرقية أكثر منها غربية

الظلم الأوربي لليونان

كثيراً ما نحس بالمسئولية عن طرح بعض الحقائق التي لا يتصورها القراء على أنها كذلك وإنما يظنونها تفكيراً حالماً أو هائماً أو أوهاماً جميلة أو تفكيراً بالتمني في أوسط التعبيرات وأقربها لياقة.

والحقيقة التي نحب أن نتحدث عنها في هذا الفصل هي أن اليونان إذا أرادت لها مستقبلاً حقيقياً في التنمية والرخاء فليس أمامها إلا أن ترتبط بما كانت مرتبطة به طيلة الفترات الممتدة من تاريخها الوسيط وهو الشرق العربي الإسلامي ، وأن

تصرف النظر عما دفعتها إليه الدول الأوروبية من تعصب ديني نكاية في الدولة العثمانية أو جمهورية تركيا فيما بعدها .

حظوظ اليونانيين في مصر

وقد أشرنا في كثير من مقالاتنا إلى حظوظ اليونانيين في مصر وعلى سبيل المثال في رئاسة وزراء مصر حين كانت مصر ولاية عثمانية وكانت اليونان جزءاً من دولة العثمانيين، فمن بين رؤساء الوزراء المصريين السبعة الأوائل فإن ثلاثة منهم كانوا يونانيين بالمولد أو الأصل : محمد شريف باشا (١٨٢٣ - ١٨٨٥) وراغب باشا (١٨١٣ - ١٨٨٧) ومصطفى فهمي باشا (١٨٤٠ - ١٩١٤) ونحن نعرف أن الثالث هو والد زوجة زعيم الأمة سعد زغلول باشا وأن الأول هو جد الملكة نازلي مباشرة ، وأن الثاني هو جد زوجة رئيس وزراء المعارضة الأشهر محمد محمود باشا ، ومن الإنصاف أن نقول إن كثيرين ممن قرأوا التاريخ المصري الحديث واستوعبوه لم يحسوا بأن هؤلاء كانوا بالمنطق المعاصر في الجنسية و المولد والحدود المطبقة يونانيين.

طبيعة اليونانيين لا تسمح بأن يكونوا جنوداً ألمانين

لا أحب أن أقفز على الموضوع بعيداً عن الدراسات الاجتماعية والطبائعية التي تذهب إلى تأكيد ما يتناقله معظم اليونانيين أنفسهم من أن طبيعة حياتهم وشخصياتهم لا تسمح لهم بأن يتحولوا ليكونوا جنوداً ألمانين أو فرنسيين على نحو ما تتطلب منهم سياسات الاتحاد الأوربي والبنك المركزي الأوربي، ومع أن مثل هذا الحديث لا يمكن تلخيصه في فقرة من مقال فإننا لا نستطيع تجاهله.

بيد أن التاريخ نفسه يُقدّم لنا صورة أخرى مختلفة عن صور التقسيمات الجغرافية القائمة على الفصل بين الأديان ومناطق مُعتنقي هذه الأديان وما يستتبع هذا من إعادة التوزيع الديموجرافي وتهجير السكان وإعادة توطينهم، ومع أن العالم عرف على مدى تاريخه كثيراً من هذه التجارب فإن الإنسانية تعتقد عن يقين في أن التوزيع الطبيعي الذي يُتيح تجاوز معتنقي الأديان المُختلفة يُمثل صماماً من أكبر صمّامات الأمن الاجتماعي والسياسي ، ولا تزال هذه الحقيقة تتألق بازغة ومُلهمة على الرغم من أن بعض الدول الحالية قامت على أساس الفصل الديني كما هو حادث في باكستان

واليونان وبلجيكا وهولندا وايرلندا الشمالية وايرلندا الجنوبية ، وبالطبع فقد تفاوتت انطباعات أصحاب هذه التجارب ما بين مؤيد للتجربة وبين منتقد لآثارها السلبية على المديين القصير والطويل.

بعض أنصار المركزية الأوروبية لا يظنون الدين إلا فاصلاً

نعرف أن الروح الغالبة على السياسات المتأثرة بفكرة المركزية الأوروبية ظلت حريصة على أن تجعل من الدين فاصلاً بين أوروبا وبين غيرها على الرغم من تنامي المناداة بالعلمانية ، لكن البحث عن عوامل مشتركة للإثبات والنفي أو لما يُسميه السلفيون "الولاء والبراء" كانت تدفع العقلية الأوروبية في لحظات الرجوع إلى الفكرة المختزلة في تصوير أوروبا قارة لا تدين أبداً بالإسلام ، وذلك في مقابل انتشار الإسلام إلى درجة التغطية الكاملة في غرب آسيا وشمالها ، وفي شمال إفريقيا وقلبها وشرقها وغربها ، وعلى حين كان الأوروبيون منتبهين إلى حدٍ ما بأنّ الفلبين هي الدولة المسيحية الوحيدة في آسيا فإنهم كانوا حريصين على نفي مثل هذه الصفة عن دول إسلامية متعددة في أوروبا عرف وصفها هكذا بحكم أغلبية السكان المسلمين ، وهكذا فإننا نجد في الموسوعات التي كتبت في أوروبا وأمريكا حرصاً دائماً على خفض نسبة السكان المسلمين عاماً بعد آخر في بلاد مثل ألمانيا واليوسنة وكوسوفو وكازاخستان وأذربيجان ، ونستطيع أن نكتشف هذا بسهولة من مقارنة النسب التي تذكرها هذه الموسوعة عن عام ٢٠١٩ مقارنة بعام ١٩٩٩ أو عام ٢٠٠٩ على سبيل المثال.

إفلاس نظريات الفصل العنصري

حتى وقت قريب ، كانت الرؤى الكلاسيكية تقول بأن الصراع يمكن أن يتجلى في صورته البارزة جداً في اليونان وتركيا وذلك بعد إعادة توزيع السكان كنتيجة لما سُمّي بحروب الاستقلال اليوناني، ومع هذا فإن اليونان رغم الحرص على إخلائها قدر الإمكان من الإسلام ومساجده ومظاهره بقيت ذات طابع خاص فيما يتعلق بالدين على وجه العموم وهو طابع مناقض لأوروبا ، إذ بقيت تحت مظلة الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ولم تندمج في كاثوليكية أوروبا (إيطاليا وفرنسا وإسبانيا) ولا في بروتستانتية بريطانيا (ولا أمريكا ولا ألمانيا ولا هولندا) وهكذا ظلت اليونان قابلة للعودة إلى الحضن الشرقي أو إلى قيادة الحضن الشرقي مع تركيا المسلمة في يوم من الأيام.

تركيا و اليونان عانتا من الانقلابات العسكرية رغم انتمائهما للناتو

وعلى الرغم من أن تركيا و اليونان انضمتا إلى حلف شمال الأطلسي فإن هذا الانضمام إلى الحلف لم يكن شفيحاً لهما لتنجوا من الانقلابات العسكرية التي كانت بعض أجهزة الولايات المتحدة الأمريكية حريصة على أن تُعوق بها التقدم في الدول النامية ذات الإرث الحضاري . وهكذا عانت اليونان كما عانت تركيا من الانقلابات العسكرية كما لو كانت كل منهما دولة من دول أمريكا اللاتينية أو الدول العربية الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط وقريبا منه.

مواقف اليونان المعاصرة أميل إلى جاراتها الشرقيات

وعلى مدى السنوات الممتدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الآن كانت اليونان تميل في سياستها إلى ما تميل إليه جيناتها الشرقية ، فكان موقفها من الصراع العربي الإسرائيلي موقفاً نموذجياً لدولة تتحرى الحق ، ولا تندرج اوتوماتيا في الترتيبات الإمبريالية، كذلك فقد كان لليونان موقف مشرف من الحرب التي فرضت على مصر في ١٩٥٦، وعلى الحروب المستترة التي فرضت على الفلسطينيين .

وعلى الرغم من التغلغل الصهيوني المعهود في كثير من البلدان التاريخية الحرة فإن اليونان كانت متنبهة بأفضل من غيرها إلى مراقبة الآثار الخطرة لهذا التغلغل، وهو ما جعلها تُقلل إلى أقصى حد من الترتيبات التي كان من الممكن أن تقع على أراضيها ضد الفلسطينيين والعرب على وجه العموم، وأكثر من هذا فإن التصويت اليوناني إلى جانب الحق العربي كان على الدوام من مفاخر اليونانيين.

التوجه الاشتراكي في اليونان

لا شك في أن التوجه الاشتراكي نجح إلى حد كبير في اليونان، لكن المركزية الأوروبية لم تكن مستعدة للترحيب به، فلما جاءت النهضة التركية الأخيرة وجدت قوى سياسية كثيرة في اليونان نفسها أمام فرصة من الفرص التاريخية للتسامي على حزبات الماضي على الرغم من كل ما يقوم به اليمين الأوربي من محاولة دفع اليونان إلى الاصطاف ضد الإسلام و من ثم ضد تركيا ، والعكس أيضا .

العلاقات المصرية اليونانية في عهد الوفد

أختم الموضوع بقصة ثقافية صغيرة، وهي أن اليونان في عهد وزارة الوفد كرّمت الدكتور طه حسين بمنحه الدكتوراه الفخرية، وأعلنت في هذا التكريم عن عزمها إعادة افتتاح أحد مساجد مدينة أثينا المغلقة على حين أعلنت مصر عن نيتها إنشاء معهد للدراسات اليونانية في جامعة الإسكندرية، ونظراً لما كانت وزارات الوفد توليه من الاهتمام بالعلم والتعليم ، ونظراً لما كان الملك فاروق يوليه أيضاً من رعاية للعلم والتعليم (باعتبارهما كما قلنا من قبل مشروع القومي إن جاز هذا التعبير) فإن معهد الدراسات اليونانية واللاتينية تأسس وتخرج فيه كثيرون ، وكانت مصر هي المستفيد الأكبر من هذا بالطبع، على حين أننا لا نعرف إن كان المسجد قد أعيد افتتاحه ثم أغلق أم أنه لم يُعدّ افتتاحه أصلاً، وفي الحالين فإن اليونان هي التي لم تُحرز الإفادة من الفوز بإعادة افتتاح مسجد واستمراره ، ولو أن مجتمعا إسلاميا يونانيا علميا قد نشأ و تكوّن في أثينا لكانت لأثينا مكانة أفضل بكثير في الاستثمارات العربية التي تنافست فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا على أن تستقطع لنفسها منها كل النصيب على حساب اليونان بالطبع .

الفصل التاسع

الزحف الروسي على أرض الدولة العثمانية

أسباب تلمظ الروس بالعثمانيين

كررت كثيراً أن المستفيد الأول من تقسيم مكونات الدولة العثمانية لم يكن بريطانيا ولا فرنسا وإنما كانت روسيا مع اختلاف أسمائها، ما بين روسيا القيصرية وروسيا الشيوعية البلشفية التي تحولت إلى الاتحاد السوفييتي. وفي حقيقة الأمر فإن روسيا ظلت طيلة حياتها تحاول الخلاص من أن تكون أسيرة لموقعها الجغرافي الذي لا يمكن له أن يحقق لها وجوداً دولياً ولا أوربياً إلا إذا اخترقت نفوذ الدولة العثمانية من الغرب أو الجنوب أو الشرق، ولهذا فإنه بحسب تعبير علم النفس يعاني "التراب

الروسي" ولا نقول المواطن الروسي ولا الجيش الروسي من الشعور بالاضطهاد الذي لا حل له إلا بالقفز على الوجود العثماني أو التركي.

انتصار الروس يقلقل السلام الأوربي

وفي الوقت ذاته فإن مستقبل أوروبا كلها يظل في مهيب الريح إذا حدث هذا التفوق الروسي ذلك أنه يندر بوقوع أوروبا كلها تحت سيطرة روسيا بكل ما في هذا من خطر وجوي على الحضارة الأوربية . ولهذا فإننا نستطيع أن نفهم ما لم تعترف به الادبيات الإنجليزية و الامريكية من أن كل معاناة بريطانيا في القرن العشرين لم تنشأ إلا بتخليها عن فكرة التوازن التي كانت تستند إلى وجود الدولة العثمانية في مواجهة المطامع الروسية. وعلى الرغم من دقة الحسابات البريطانية فإن هذه الحسابات بدءاً من الحرب الروسية العثمانية (١٨٨٧ - ١٨٨٨) دخلت دور الأخطاء الاستراتيجية التي دفعت بريطانيا ثمنها تباعاً وإذا كانت الإمبراطورية العثمانية قد انتهت في ١٩٢٢ فإن الإمبراطورية البريطانية نفسها انتهت بعد ربع قرن في ظروف أصعب لولا رعاية دولة الأمريكيين وهي رعاية مكلفة و محسوبة ومحدودة ومشروطة ومع هذا فإنها لا تؤدي من المنفعة ما كانت الدولة العثمانية تحققه بوجودها . ويبدو بوضوح أن إدراك البريطانيين و الأوربيين معهم لفكرة إلحاحية دعم تركيا تتعثر دائما بما يشوب التعصب الديني من الغباء التلقائي .

الانتقال أوروبا الشرقية إلى النفوذ الروسي بدعوى الاستقلال !

كانت الحرب الروسية العثمانية التي استمرت حوالي عشرة شهور ما بين ١٤ أبريل ١٨٧٧ و ٣ مارس ١٨٧٨ بمثابة بداية سقوط أوروبا الشرقية في يد ما عرف بعد ذلك باسم الاتحاد السوفييتي حتى وان كانت روسيا القيصرية هي التي انتصرت بحكم انها كانت لا تزال موجودة على قيد الحياة ، أو فلنقل ان هذا الانتصار كان بلغة ذلك العصر بداية دخول بعض دول أوروبا الشرقية في منطقة النفوذ الروسي تحت دعوى خادعة للمسيحيين وهي دعوى الاستقلال عن حكم العثمانيين.

وباختصار شديد تلخصه اللغة المعاصرة فأن هناك دولا كاملة من الدول المعروفة الآن انتقلت من النفوذ العثماني إلى النفوذ الروسي تحت دعوى الاستقلال عن الحكم العثماني على أنه انتصار للمسيحية بينما كان انتصاراً للضياع الباعث على التطرف

القومي ، و كانت القوى الاوربية في ذلك الوقت حريصة على ان يكون هذا الاستقلال نوعا من استقلال منقوص و ظاهري و الدليل على هذا أنه لم يدم كثيراً إذ سرعان ما حصل النفوذ الروسي في الحرب العالميتين تحت أسماء مختلفة تطور آخرها إلى النماذج المتجاورة الثلاثة التي عاشت طيلة عصر الحرب الباردة وهي بالترتيب :

- نموذج الاتحاد السوفييتي
- نموذج الاتحاد اليوغوسلافي
- نموذج حلف وارسو

ومع اختلاف هذه الانتماءات الثلاثة فإن الأولين كان يجمعهما النفوذ السوفييتي بوضوح على حين كان الثالث (الاتحاد اليوغوسلافي) يبدو مقاوما للفكرة السوفييتية إلى حين مع إيمانه بالشيوعية.

معاناة بلغاريا من التآمر الأوربي

أول هذه الدول هي بلغاريا فقد كانت جماعاتها القومية تحافظ من أن لاخر على دعواها التاريخية بإعادة تأسيس دولة بلغارية، وفي ظل التوازنات فقد سمح الغرب بقيام إمارة بلغاريا لتضم المساحة ما بين نهر الدانوب وجبال البلقان مع اقتطاع جزء من هذه الأرض لرومانيا، واختيرت صوفيا لتكون عاصمة لهذه الإمارة الجديدة، وقد كانت الوثيقة التي نشأت بها هي معاهدة برلين ١٨٧٨ وظلت إمارة بلغاريا ما بين ١٨٧٨ - ١٩٠٨ مع استقلالها تابعة للدولة العثمانية لكنها شهدت صراع الأطراف ، فالبلغاريون في مقدونيا ينتمون للحكم العثماني، بينما صربيا تعتبر أن مقدونيا هي صربيا الجنوبية، وبينما اليونان تعتبر مقدونيا بمثابة جزء من شمال اليونان.

رومانيا وصربيا والجبل الأسود

ثاني وثالث ورابع هذه الدول هي رومانيا وصربيا والجبل الأسود وقد أصبحت كيانات هذه الدول [الحالية] منذ الحرب الروسية العثمانية مستقلة عن الدولة العثمانية لأنها دخلت الحرب مع روسيا ضد الدولة العثمانية وشاركت في تحقيق ما عرف على أنه انتصار سان ستيفانو ومعاهدة برلين .

البوسنة و قبرص

على أن معاهدة برلين لم تؤد العثمانيين والدول الثلاث السابقة فحسب لكنها سمحت أكثر من هذا للدولة النمساوية المجرية الجديدة باحتلال البوسنة (خامس هذه الدول) كما سمحت لبريطانيا باحتلال قبرص (سادس هذه الدول).

هل كان من الممكن للدولة العثمانية أن تتجنب نتائج سان ستيفانو؟

يقول التفكير النظري إن الأزمات المالية كانت سببا رئيسا لأزمة الدولة العثمانية في عصر لم يكن يعرف معنى التمويل بالعجز، ولا تغطية الديون بالالتزامات الورقية، وقد بدأت أولى أزمات الدولة العثمانية حين بدأ السلطان عبد المجيد الأول (والد السلطان عبد الحميد الثاني) إصلاحاته السياسية من دون أن يكلف مواطنيه ثمنا اقتصاديا موازيا لها، ذلك أن الإصلاحات السياسية التي أتمها ذلك السلطان كانت تقتضي قوة دفاعية ومخابراتية لحمايتها قبل أن يستغلها الأعداء بكثافة في توسيع سياساتهم المعادية والمعتمدة على آليات التجسس والتأليب وتهديد الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي وهي آليات تجيد استثمار مناخ الإصلاح السياسي ما لم يكن مدعوما بقوة استباقية.. لكن السلطان عبد المجيد مارس الإصلاحات السياسية بنسبة ٦٠٪ على حين مارس الإصلاحات الاقتصادية بنسبة ٣٠٪ والإصلاحات العسكرية بنسبة ٢٠٪ وهكذا كانت النتيجة أن الإصلاحات السياسية لعبت ضد مصلحة الدولة و سطوتها وقوة قبضتها.. وكان العكس هو ما حدث في الدولة الروسية التي قوت من قبضتها الباطشة على يد أربعة قياصرة متتاليين عرفوا بالتعصب وهم:

- نيقولا الأول ١٧٩٦ - ١٨٥٥ [١٨٢٥ - ١٨٥٥]
- ثم ابنه الاسكندر الثاني ١٨١٨ - ١٨٨١ [١٨٥٥ - ١٨٨١]
- ثم ابنه الاسكندر الثالث ١٨٤٥ - ١٨٩٤ [١٨٨١ - ١٨٩٤]
- ثم ابنه نيقولا الثاني ١٨٦٨ - ١٩١٨ [١٨٩٤ - ١٩١٧]

وهو الذي كان آخر قياصرة الروس، لكنه مع ذلك ترك للشيوخية نفوذ حكومة قوية متماسكة مسيطرة على شعبها المسكين بالحديد والنار وإن لم تكن متقدمة أو إنسانية.

الباب الثالث

الانخداع العربي بفكر الإمبرياليين

الفصل العاشر

كيف زور العرب لأولادهم تاريخ الدولة العثمانية

اصطناع مقرر التربية الوطنية

في عصور معروفة كانت مناهج التاريخ تضطر إلى التنازل عن موضوعاتها لصالح مادة دراسية أخرى تُسمى بالتربية القومية أو التربية الوطنية، وتُصبح هذه المادة أحد فروع الدراسات الاجتماعية في مرحلة التعليم الإعدادي ، فتُصبح هناك حصة دراسية للجغرافيا ، وحصة دراسية للتاريخ ، وحصة دراسية للتربية الوطنية، وكذلك الحال في التعليم الثانوي ، بحيث تُصبح هذه المادة من مواد المجموع ومن مواد النجاح والرسوب بل إن مُخصّصاتها الزمنية تتضاعف في الأقسام الأدبية ، وإن احتفظت بحقها أيضا في الأقسام العلمية من التعليم الثانوي.

في منهج هذه المادة تقدم أنظمة الحكم الشمولية علم التاريخ بعد أن تضربه (أو تخفقه) في الخلاط فيُصبح في حالة سيولة تتحكم في سُكرها أو سُكريتها أو حلاوتها و ملوحتها و حمضيتها أو قلويتها و كثافتها و لزوجتها ، كما يُمكن لها أن تتحكم في خصائصها الأخرى ، بأن تُضيف إليها ما تشاء من أيديولوجيتها أو ادعاءاتها .

التربية المدنية و الدولة الشمولية

في الدول التي تلتزم بحقوق الإنسان وبمبدأ الحريات السياسية لا يجوز للدولة أيًا ما كانت أن تلجأ إلى هذه المادة الدراسية المُصطنعة ، بل إن أحد المُقومات الحقيقية للتحول من الحياة الشمولية أو نظام الحزب الواحد يتطلب أن تتنازل الدولة عن حقّها في فرض هذه المادة كمادة دراسية من الأساس.

من الجدير بالذكر والإشادة أن البديل الأفضل لمناهج التربية السياسية والمدنية كان موجودا في نظام التعليم المصري في بداية عهد النهضة و بعد ثورة ١٩١٩ ، وهي مادة تحرص المجتمعات الحرة على تدريسها ، ومن حق مصر أن تفخر بأنها

في عهد الليبرالية و في ظل حكومات الوفد و غير الوفد على حد سواء كانت تدرس هذه المادة ، وكان من أعدّ محتواها و وضع كتبها أدباء و مفكرون عظماء من طبقة الأستاذ عبد العزيز البشري ، حيث كانت التربية السياسية والحضارية والمدنية والمجتمعية تُقدّم من خلال التعريف الذكي بالمصطلحات ومعانيها ومراميتها ووجودها وتاريخها كما تُقدم مفاهيم علم الاجتماع السياسي والنظم السياسية و تُنظم الدولة والحكومة .. الخ .

كنا ولا نزال نجاهد من أجل أن نعود إلى تدريس هذه الكتب على نحو ما أُلّفت منذ ما يقرب من مائة عام حين كان كل شيء يُصاغ بإتقان وأمانة.

ما حدث للتاريخ العثماني في مناهجنا

كان هذا المدخل ضروريا لأفسّر للقارئ كيف صيغت مفاهيم الأجيال المعاصرة عن التاريخ العثماني، فمن الحق أن نقول إن مادة التاريخ لم تتورط في هذا التزوير لا في المقررات ولا في الامتحانات ، وبخاصة أن المساحة الزمنية المُتاحة لتدريس التاريخ الإسلامي كله محدودة ولا تتناسب مع أي مساحة مناظرة تُقدمها الولايات المتحدة الأمريكية أو أية دول غربية لتاريخها الوطني والقومي والحضاري..

بل إن بعض المناهج الأوروبية المعاصرة تُخصّص لتاريخنا (باعتباره جزءا من التاريخ الإنساني) أكثر مما يُخصص له في المناهج المصرية.

اصطناع اتهامات باطلة ضد العثمانيين

ماذا حدث للتاريخ العثماني بالضبط في مناهجنا، ومن أن أين أتى التركيز على كل هذه العبارات المتهمة للعثمانيين بالظلم والجور والعسف وإيذاء العرب وإعدامهم ؟ في الحقيقة فإن تسعين في المائة من الانتقادات التي تُوجّه للعثمانيين الذين حكموا قرونا طويلة تتعلق بالسنوات الأخيرة من حكم الدولة العثمانية ، حين تحولت هذه الدولة إلى حكم العسكر الذي نجح في أن يُقدّم نفسه على أنه ملكية دستورية على غرار الملكيات الدستورية المعروفة في بريطانيا وغيرها، بينما كان هو البروفة الأقرب إلى النظام الشمولي السوفييتي الذي نشأ بعده واستمرّ حتى سقط في ١٩٨٩ مع سقوط حائط برلين.

إنكار الاسم الحقيقي للانقلاب

حتى الآن لم يُسمَّ أحد من الأوروبيين ولا العرب بالطبع ما حدث في الدولة العثمانية منذ ١٩٠٨ بالاسم الحقيقي وهو "الانقلاب العسكري العثماني". حدث هذا الانقلاب من خلال حزب عسكري الهوى والنوى والأشخاص والطبيعة ، وقد استولى على الحكم فأنهى عهد السلطان عبد الحميد الذي هو آخر السلاطين العثمانيين حقيقة، وأسند الخلافة أو السلطة أو رئاسة الدولة إلى أخيه محمد الخامس (١٩٠٩) ثم إلى أخيهما محمد السادس (١٩١٨) تحت تهديد السلاح ، بينما حُكمت الدولة بالجنرالات.

أثر مظلة حزب تركيا الفتاة

كان الثوب السياسي الذي ارتداه هؤلاء العسكريون الانقلابيون أنهم حزب تركيا الفتاة وقد وصلوا إلى ما قبل ذروة انقلابهم بوصولهم إلى الاستحواذ على صفة المعارضة ضد السلطان عبد الحميد، واستطاعوا الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وأصبحوا هم القوة الفاعلة والحاكمة وجاءت الحرب العالمية الأولى فزجوا بالدولة العثمانية فيها برعونة ، فأطاحوا بوجود الدولة نفسها على نحو ما يفعل أمثالهم في كل مكان وزمان حين يتولون السياسة فتخسر شعوبهم كل شيء حتى كيان الدولة وأرضها.

في سنوات حكم العسكر الذين عرفوا تاريخيا باسم الباشوات الثلاثة : طلعت باشا وأنور باشا و جمال باشا عرفت الشعوب العربية البطش الشديد الذي جعل حاكم سوريا جمال باشا يستحق لقب "السفّاح" الذي أطلقه عليه السوريون .

وقد كان جمال السفّاح على سبيل المثال حريصا على أن يُببّد كل الزعماء الوطنيين المدنيين ، وليس في هذا التعبير مبالغة ، فكلّ زعماء الشام الذين عاش بعضهم حتى الستينات من القرن العشرين كانوا قد حُكم عليهم بالإعدام في عهده الذي هو عهد عثماني اسما لكنه كان حكم العسكر قبل أن يعرف المصطلح ، ومن قلب الحكم العسكري هذا برز مصطفى كمال أتاتورك والأتاتورية.

تزوير نسبة الفعل السياسي لغير صاحبه

وهنا نجد العرب الذين درسوا التاريخ والتربية الوطنية و تشبعوا بالإعلام الموجه على مناهج الناصرية والبعث ينسبون فظائع حكم العسكر الذين استولوا على مقدرات الأمور في الدولة العثمانية منذ انقلابهم واستيلائهم على مقاليد الحكم في ١٩٠٩ إلى العثمانيين ، بينما كان هؤلاء ضباطا منقلبين قليلي الخبرة بالسياسة كحكام الناصرية والبعث والقوميين العرب.

و من ناحية أخرى نجد الإسلاميين وهم يظنون و يتناقلون ما قدر لهم أم يلتقوه من أن التتريك والانحياز ضد العرب لم يبدأ إلا في عهد أتاتورك ، بينما كان عهد أتاتورك نفسه حلقة متأخرة من حلقات حكم العسكر الذي بدأ منذ ١٩٠٩ .

نشأة الجمعية العربية للفتاة

من الجدير بالذكر أنه طبقا لمبدأ الفعل ورد الفعل، فإن الجمعية العربية للفتاة نشأت كرد فعل على جمعية تركيا الفتاة، ومن الطريف أنها نشأت في باريس ١٩٠٩، أما تركيا الفتاة نفسها فتعود بدايتها إلى بدايات القرن العشرين ، وفي أكثر التقديرات عراقية فإن جذورها تعود إلى ١٨٨٩ فقط ، وهي في البداية والنهاية حركة طلاب عسكريين وليست حركة مجتمع مدني، كما أنها في البداية والنهاية كانت صدى لاضطرابات الانكشارية التي عرفتھا الدولة العثمانية في مراحل متأخرة من حياتھا .

ولم تكن هذه الحركة حركة إصلاحية ذات مشروع حضاري ، وإنما كانت في معظم نصوصها وأدبياتها حركة تتريك أو تحيز للمركز الحاكم ، يُمكن وصفها بالوصف الشائع الآن عن أبوظبي التي تتحمل الجزء الأكبر من نفقات الإمارات أو الوصف الشائع في السبعينات حين كانت روسيا تتحمل عبء الاتحاد السوفييتي ، وحين كانت ألمانيا الديموقراطية تتحمل عبء حلفاء وارسو.. أو ما يزعمه الرئيس ترامب من أنّ الولايات المتحدة الأمريكية تتحمل نفقات حلف الأطنطي بأكثر من الباقين وهو زعم يفتقد الدقة.

و من هذه الروح كانت تنشأ دعوات التتريك والانحياز للجنس الطوراني الذي يتحمل مسؤولية الدولة ، بينما الأطراف لا تتحمل بل تردهر.

التعود على تكرار التزوير

و هكذا زور العرب لأولادهم تاريخ العثمانيين مرتين :

- حين نسبوا سنوات العسكر بطغيانها إلى العثمانيين لا إلى العسكر، وجعلوها بديلا لخمسة قرون .
- و حين ظنوا العسكرة لم تبدأ إلا مع أتاتورك، بينما كان أتاتورك نفسه هو ثمرتها الأخيرة التي ربما كانت أقل قسوة من فترة الباشوات الثلاثة الذين ساموا العثمانيين والعرب معهم سوم العذاب.

الفصل الحادي عشر

الأتراك لم يخونوا العرب لحظة واحدة منذ تأسست جمهوريتهم

معقبات مأساوية

نعرف أن بعض معقبات الخيانة العربية كانت من الأسباب الرئيسة لانتهاة الدولة العثمانية وما عانته تركيا من هذا الموقف الذي لم يكن له أي مبرر إلا الرغبة المراهقة في قبول الخيانة المؤذية وذلك على الرغم من أن السم كان واضحا ولم يكن خفيا . ومع هذا فإن الأتراك الذين أسسوا دولة جديدة باسم الجمهورية في ١٩٢٣ عاشوا مع العرب حتى الآن يُعانون من تحرشات العرب المتكررة التي لا يُمكن تفسيرها في ضوء الطب النفسي إلا بنزعة جبر التكرار المسيطرة على كثير منهم . وفي مقابل السلوك العربي فإن الأتراك لم يخونوا العرب لحظة طيلة هذه السنوات السبعة والتسعين (١٩٢٣ - ٢٠٢٠) ، بل على العكس من هذا ، فإن تركيا وقفت مع العرب ومع مصر بالذات مواقف بطولية تُكتب بأحرف من نور .

ولعلّ أبرز هذه المواقف هو موقف تركيا في حرب ١٩٧٣ ، وهو موقف حقّق لمصر (والعرب) ما لم تكن تحلم به من أي حليف أو صديق، فما بالك بأن هذا

الموقف النبيل جاء من دولة عانت من الفتور والنفور المتكررين و اللذين كانت ثورة ١٩٥٢ قد جعلتهما الطابعين المسيطرين على العلاقات التركية المصرية.

السماح للجسر الجوي السوفييتي لإسعافنا في حرب ١٩٧٣

سأبدأ بمقاربة بسيطة تكشف عن مقارنة ذكية تثبت عظمة الدور التركي ، فأذكر أننا كنا نقرأ ما يتلمظ به الأستاذ هيكل عن سفر الرئيس أو المشير عامر أو سفره معهما إلى موسكو ، فنجد الإشارة الخبيثة ثقيلة الظل والدم إلى أن الرحلة طالت مسافتها ومن ثم طال زمنها وذلك لتفادي المرور فوق الأراضي التركية ، لأن الطيران السوفييتي (!) لا يمر في الأجواء التركية التي هي عضو في حلف الناتو (حلف شمال الأطلسي) فما بالنا إذاً بهذه المفاجأة المبهجة و المذهلة التي حدثت في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، حين سمحت تركيا للجسر الجوي السوفييتي الذي كان ينقل السلاح إلى مصر والعرب بالمرور في الأجواء الجوية التركية (التي لم يكن هناك اتفاقات مرور خاصة بها) ، وذلك إسعافاً للقوات المصرية والعربية المحاربة في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وذلك على الرغم من عضوية تركيا في حلف الأطلسي الذي تقوده أمريكا التي كانت تُحارب مع إسرائيل!

ألف طائرة سوفييتية عبرت تركيا إلى قواتنا المحاربة

هل يتصور القارئ الحقيقة التاريخية التي لا يُمكن إنكارها (وإن كان قد تم إخفاؤها عمداً من الجانبين) وهي أن حوالي ألف طائرة سوفييتية قد عبرت الأجواء الجوية التركية إلى القوات العربية المحاربة وقد حملت على متنها ١٥ ألف طن من الأسلحة والمعدات العسكرية لدعم الجبهة المصرية المحاربة في ١٩٧٣ . وذلك في مواجهة مع الجسر الأمريكي لإسرائيل الذي نقل أكثر من ٢٢ ألف طن من الإمدادات العسكرية ما بين ١٤ أكتوبر و ١٤ نوفمبر ١٩٧٣ .

ليس هذا فحسب بل إن تركيا التي هي عضو في حلف الأطلسي و ملتزمة بسياسته رفضت أن تُستخدم أجواؤها الجوية لعبور طائرات الجسر الجوي الأمريكي إلى إسرائيل، وكانت النتيجة أن زادت ساعات الطيران المطلوبة لهذا الجسر، وما ترتب على هذا من ضرورة هبوط هذه الطائرات الأمريكية في الطريق للتزود بالوقود بعد أن زادت ساعات طيرانها على المعدلات المعروفة سلفاً.

تركيا رفضت استخدام قاعدة الناتو في أي دعم لإسرائيل ضد مصر

أكثر من هذا فإن تركيا التي كانت تحكمها حكومة منتخبة رفضت استخدام قاعدة انجريك التركية التابعة لحلف الأطلسي في أي دعم لإسرائيل ضد مصر أثناء الحرب.

تركيا تعلن وقفها مع الحق العربي في وقف تصدير النفط

وحين واجهت الدول العربية حملة دولية بسبب قرار حظر تصدير النفط لأمريكا ، فإن تركيا أعلنت بكل وضوح أنها تقف مع الحق العربي في منع تصدير النفط .

تأييد الرئيس السادات في كل خطواته للسلام

وأكثر من هذا فإنه عندما استطاع الرئيس السادات الوصول إلى اتفاقيات فض الاشتباك الأول والثاني ثم كامب ديفيد ومعاهدة السلام ولقي ما نعرفه من تعنت الأنظمة العربية في المزايدة عليه لدفعه بشدة وعنف للفشل (وهو التعنت الذي وصل إلى حد فرض عقوبات على مصر) ، فإن حكومة تركيا المنتخبة لم تتوان عن تأييد الرئيس السادات في كل خطواته ، مؤكدة على ما نادى به تركيا على مدى تاريخها من رفضها العدوان الإسرائيلي في ١٩٦٧ ومطالبتها إسرائيل بالتخلي عن الأراضي التي استولت عليها بالقوة، وتأكيدا الدعوة إلى مؤتمر جنيف للسلام.

دعم مصر كان السبب الحقيقي للإيعاز بانقلاب ١٩٨٠

ومن الحق أن نُشير إلى ما لم تُصرّح به الأدبيات التاريخية حتى الآن من أن الموقف التركي المؤيد على طول الخط للرئيس السادات كان سببا جوهريا من أسباب التحريض الأمريكي للانقلاب العسكري في سبتمبر ١٩٨٠ على حكومة الرئيس سليمان ديميريل الذي تبادل السلطة مع مُنافسه بولنت أجاويد على مدى سنوات. ولهذا فقد تكفل الانقلاب العسكري في ١٩٨٠ في أول توجهاته بإعادة السفراء بين تركيا وإسرائيل.

التعاون العسكري الذي لم ينقطع لقضايا العرب

ربما كان هذا المدخل الذي بدأت به كفيلا بأن يشير إلى عدة مظاهر لإخلاص الأتراك للعرب وقضاياهم:

- ففي حرب ١٩٥٦ كان لحكومة عدنان مندريس دور فدائي في تنبيه الرئيس عبد الناصر إلى المؤامرة التي كانت تجهز ضده ، فضلا عن هذا ، فقد كان لها موقف داعم لمصر. ووصل الأمر بحكومة مندريس أنها في احتجاجها على هذا العدوان خفضت علاقتها الدبلوماسية بإسرائيل .
- وطيلة فترة الحروب وما بعدها كانت القواعد التركية البحرية (وغير البحرية) تستقبل تدريبات البحرية المصرية بالترحاب والكرم والعناية.
- وكانت تركيا من أوائل الدول الداعمة لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكونها الممثل الشرعي لفلسطين
- وكان لتركيا دورها في إقرار الأمم المتحدة لفكرة اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.
- وفي ٢٠٠٦ وقفت تركيا بوضوح مع المقاومة اللبنانية ضد العدوان الإسرائيلي على الرغم من التواطؤ العربي
- وفي ٢٠٠٨ وقفت تركيا مع غزة ، وهو ما تكرر في ٢٠١٠ و ٢٠١٢ و ٢٠١٤ و ٢٠١٨
- وموقف تركيا من الحروب (الأمريكية) المتعاقبة على العراق موقف مُشرف لم ترق إليه كثير من الدول العربية .

مفارقات سياسية قاسية تحتاج شيئا من التمهل في استيعابها

- ربما لا نعرف أن لتركيا منذ ١٩٩١ مشروع أنابيب السلام لثزود دول الخليج العربي بالمياه التركية عبر أنابيب طولها ٦٥٠٠ كيلو متر .
- و نعرف من كتب التاريخ ومن حملات الناصرية المستمرة حتى الآن أن الرئيس عبد الناصر كان ضد حلف بغداد وكان يعتبره ضد العروبة، وكان هذا الحلف يضم ثلاث دول إسلامية هي تركيا وباكستان وإيران مع بريطانيا والعراق التي هي مقر ذلك الحلف.. نعرف هذا ، ولكننا لا نعرف الجانب الآخر من الحقيقة ، وهو أن إسرائيل كانت أشدّ هجوما على حلف بغداد من الرئيس عبد الناصر نفسه.
- نعرف أيضا أن الرئيس عبد الناصر كان مع اليونان ضد تركيا في قبرص، لكن المفاجأة التي لا يعرفها الناس لأنها غُيّبت عنهم أن إسرائيل كانت هي الأخرى مع

اليونان ضد تركيا.. وهكذا اصطفَ الرئيس عبد الناصر للمرة الثانية مع إسرائيل (بعد المرة الأولى في الموقف من حلف بغداد)..

■ في المقابل نعرف أن حكومة العسكر في تركيا اعترفت بإسرائيل في ٢٨ مارس ١٩٤٩، لكننا نتجاهل أن هذا الاعتراف كان ضرورياً لأن تُصبح تركيا عضواً في مجلس أوربا وفي حلف شمال الأطلسي الذي كان قبول تركيا فيه متوقفاً على هذا الاعتراف، ومع هذا فإن عسكر تركيا لم يُعيّنوا رئيس بعثتهم الدبلوماسية إلى إسرائيل إلا بعد مدة من الزمن .

الفصل الثاني عشر

الإنجاز الذي دمره العرب حقداً على أنفسهم : سكة حديد الحجاز

كانت سكة حديد الحجاز التي أنجزتها حكومة الدولة العثمانية بفضل تعاون وتمويل المسلمين وأموالهم نموذجاً مبكراً للنجاح المُبهر في مشروعات البنية التحتية عابرة الدول والقوميات ، لكن تاريخ هذا المشروع العظيم وحجم الإنجاز فيه سرعان ما خبا لسبب واحد فقط ، وهو انتهاء عهد الدولة العثمانية ، ونشأة كيانات جديدة كانت معنية بأن تبرر (و تبرز) خيانتها للدولة العثمانية وعملها ضد مصلحة هذه الدولة وضد مصلحة المسلمين ، وضد مصلحة الشعوب التي أصبحت هذه النظم الجديدة مُتَحَكِّمة في أمرها بما تشاء من فرض الظواهر المعنوية المعادية للهوية الإسلامية ورواية التاريخ بأسلوب مُخالف للحقيقة .

سأحاول في عُجالة أن أُلخص حجم الإنجاز العظيم الذي لم يتكرر منذ مائة عام، وإن كان الإسرائيليون قد بدأوا في الآونة الأخيرة يُبشرون بقدرتهم على إنجاز مشروع شبيهه، وإن لم يكن بكامل إنجاز المشروع القديم.

الحجم القياسي للإنجاز

بلغت أطوال هذه السكة قرابة ألفي كيلو متر، وإذا علمنا أن بعض الدول الرائدة في إدخال السكك الحديدية لم تكن قد وصلت إلى هذا الرقم، ولم تصل إليه إلا بعد

ذلك بكثير ، فإننا نُدرك حجم وضخامة الإنجاز الذي تم في إنجاز ما يزيد على ألف وتسعمائة متر من السكك الحديدية ، وقد تمثلت الصعوبة الكبرى في هذا المشروع في أنه تم في أرض غير مستوية وغير سهلة ، فقد وصلت خطوط السكك الحديدية إلى مستوى ٤٠٠ متر فوق سطح البحر في بعض المناطق و ٢٠٠ متر تحت سطح البحر في مناطق أخرى ، ويكفي هذا للتدليل على حجم وطبيعة الإنجاز الإنشائي الذي كان يتطلب كما نعرف في السكك الحديدية أن يكون مستواها من بدايتها إلى نهايتها هو نفس المستوى سواء استدعى هذا بناء خطوط السكك عالية عما يُحيطها أو منخفضة عما يُحيطها ، وما يستتبعه هذا من أعمال إنشائية كثيرة و ضخمة .

تحمس السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد الثاني هو الذي تحمس للمشروع ، و كان الذي اقترحه عليه وتولاه ورعاه هو أحمد عزت العابد ١٨٥٥ - ١٩٢٤ على نحو ما سنرى في حديثنا عنه في الفصل التالي ، وقد سمي المشروع باسمه "سكك الحجاز الحديدية" وأطلق في ذكرى توليه العرش في أول سبتمبر ١٩٠٠ و كان من الذين بذلوا الجهد في إنجازهم كثير من العرب العاملين في ظل الدولة العثمانية ومنهم محمد فوزي باشا العظم والي دمشق و والد الرئيس السوري خالد العظم . وكان الخط الرئيسي يمتد من مزيرب إلى درعا إلى الزرقاء إلى دمشق إلى عمان إلى معان إلى تبوك إلى مدائن صالح إلى المدينة المنورة ويبلغ طوله ١٤٦٤ كيلومتر ، أما الخط الواصل إلى شرق البحر ، فكان يمتد ما بين القدس وحيفا ودمشق وبيروت و حلب..

النتيجة الفورية : تضاعف الحجيج أربع مرات

كانت النتيجة الفورية لإنشاء هذا الخط أن ارتفعت أعداد الحجاج إلى ما بين ثلاثة و أربعة أضعاف ، فقد ارتفعت الأعداد من ٨٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف حاج.

المسلمون تبرعوا بمعظم التكاليف

وصلت تبرعات المسلمين لبناء هذا الخط إلى ٤ ملايين ليرة تركية وهو ما يوازي أكثر من ٨٥ ٪ من تكلفته التي بلغت ٤,٥ مليون ليرة وتكفل الوازع الديني وحده بكل هذا الإخلاص لهذا المشروع الحضاري، و كانت الدولة العثمانية عند

حسن الظن بها ، فلم تبخل على من تبرعوا لهذا المشروع بالأوسمة والميداليات والشهادات على نحو ما كان معهودا في ذلك الزمان.

كراهية العرب لأية رابطة تقوي صلاتهم

تمثل قصر نظر العرب الشديد فيما لقيه هذا الخط العظيم من كراهية العرب له ، وقد فهم الأوربيون هذا في إطار ما وصفوه بأنه كراهيتهم الوراثية (أو الفطرية) لأي رابطة تقوي الصلة بينهم وبين بعضهم البعض ، وهي الصفة التي يذهب بعض مؤرخيهم إلى القول بأنها كانت السبب الحقيقي في سقوط دولة العرب الزاهرة في الأندلس وفي تضييع فلسطين أيضا .

وقد ذكرنا في إحدى محاضراتنا في أوروبا أن بعض المواطنين في مناطق البدو في الأردن كانوا لا يزالون حتى سنوات قريبة يتذكرون أن أكبر فائدة عادت عليهم من الثورة (!!) التي قادها الشريف حسين كانت هي تلك الفلنكات الخشبية الضخمة التي ورثوها بالمجان بعد تدمير السكك الحديدية ، وسرقة خطوطها ، فقد ظلت هذه الفلنكات في أماكنها يلجأ إليها هؤلاء البدو من عام لآخر ليستدفنوا بخشبها في برد الشتاء .

مظاهر السذاجة و قصر النظر

وهكذا يظن هؤلاء أن الثورة العربية (المنكوبة) أورتتهم هذه الثروة من أخشاب التدفئة ، ولا يدركون أن السكك الحديدية لو ظلت على كيانها الذي أقامه العثمانيون لارتفع مستوى دخل بلادهم أضعافا مضاعفة ، ولنقلتهم من حال الفقر المدقع إلى ثراء لا يقل عن الثراء الأوروبي في المناطق الواقعة على مثل هذا الخط الحضاري الذي لا يوجد مثله استراتيجيا في أمريكا ولا أوروبا حتى الآن.. لكن هذا المثل البارز على الترويج بالباطل للخراب يدلنا على قيمة الوعي ، وعلى نتائج غياب الوعي.

محاربة الغرب لمستقبل التنمية العربية

تكشف لنا كتب التاريخ الأوروبي عن تلك الفترة كثيرا من الحقائق الجوهرية في نظرة الغربيين إلى مستقبل التنمية في الأقطار العربية (سواء في ذلك الدولة العثمانية أو الدول التي خرجت من الحرب العالمية الأولى إلى مسميات قومية وقُطرية).

وعلى سبيل المثال فإن الصحافة البريطانية شنت حملة على هذا المشروع وصورته (بأقلام مناصريها العرب) على أنه نهب لأموال المسلمين، وكان السبب في هذا أن الخبرة الهندسية كانت ألمانية القيادة وضمت بعض الفرنسيين والنمساويين والبلجيكيين ، بينما لم يشترك فيها أحد من الإنجليز.. لكن العجيب في الأمر أن بعض الألمان تورطوا أيضا في مهاجمة المشروع ومنهم سفير ألمانيا لدى الدولة العثمانية.

معاهدة سيفر أجبرت العثمانيين على التخلي عن حقهم

لكن هذا يهون إذا علمنا أن معاهدة سيفر المشؤومة (١٩٢٠) أجبرت الدولة العثمانية على التخلي عن حقوقها في هذا الخط ، و أن تترك ملكيته للدول التي يمر بها لتتولى هذه الدول تخريبه بنفسها ، إلا بعض أجزاء كان يستحيل تخريبها لكثافة استعمالها وفي مقدمتها الخط الواصل بين العاصمتين الأردنية والسورية ، وإن كان هذا التدهور قد ظل يُلقى بتبعاته المتكاثرة على كل مكونات ومقومات هذا الخط حتى توقف في ٢٠١١.

الأمريكيون كانوا يتمنون مبكرا الفوز بمقاولة المشروع

من الطريف في هذا المقام أن نذكر للمهندسين الأمريكيين ريادتهم المبكرة (التي يُنكرها مؤرخونا ويظنون أنها لم توجد إلا بعد الحرب العالمية الثانية) فمن الثابت أن أول من اقترحه ١٨٦٤ كان مهندسا أمريكيا وقد تقدم بالاقترح للسلطان عبد العزيز بالمواكبة لابتهاج مصر بإنشاء مصر لخطوطها ، التي أعجب بها السلطان عبد العزيز حين زار مصر ١٨٦٣ في مطلع عهد الخديو إسماعيل الذي تسلم مصر بعد ما كانت خطوط سككها الحديدية قد تمت في عهد الواليين المظلومين عباس باشا و سعيد باشا .. لكن السلطان عبد العزيز لم يتحمس وقتها للمشروع الأمريكي .

إسرائيل طرحت فكرة إعادة مثل هذا الخط

من المدهش أن إسرائيل التي طرحت فكرة إعادة مثل هذا الخط لتقفز على الصراع السياسي بتعاون اقتصادي، لا تكف عن التلويح بإنجازه ليكون لها دور الأسد فيه، لكنها حين تفعل ذلك لا تقرنه كما يفعل العرب بكراهية العثمانيين، بل إنها رغم كراهيتها التامة للدولة العثمانية وشماتها في نهايتها لم تغفل أن تحتفل بالذكرى المئوية لوصول خط سكة حديد الحجاز إلى حيفا الفلسطينية التي لم تكن بالطبع

خاضعة للاحتلال الصهيوني في ذلك الوقت الذي وصلتها سكة الحديد العثمانية (١٩٠٥) ومع هذا فقد احتفلت إسرائيل بما يكره العرب أن يحتفلوا به حقدا على أنفسهم .

الفصل الثالث عشر

العابد الذي أقنع السلطان عبد الحميد بإنشاء سكة حديد الحجاز

كان أحمد عزت العابد (١٨٥٥ - ١٩٢٤) واحدا من رجال الدولة العثمانية في عهد نهايتها وكان نموذجا لمن يوصفون بأنهم رجال الإصلاح في عهد الانهيار، وعلى المستوى الرسمي فإنه كان نموذجا بارزا للعربي الذي وصل إلى مواقع متقدمة في نظام الحكم العثماني.

مكانته التاريخية

كان أحمد عزت العابد من أقدر رجال الدولة العثمانية على إنجاز الإصلاحات الاقتصادية والعمرانية، وكان يتمتع بالصبر والحكمة والقدرة على تصريف الأمور بكفاءة وبأقل التكاليف، حتى كادت الدولة العثمانية بفضلها تستغني عن اقتراض الأموال من الخارج. ومع أنه متهم (بحكم مناصبه) بالاشتراك فيما نسبته العرب إلى عهد السلطان عبد الحميد من الاستبداد، فقد كان رجل دولة مصلحاً ومنتزعا، وقد مكن الدولة من ضبط الاقتصاد وإنجاز كثير من الإنجازات المدنية العصرية، وعلي رأسها سكة حديد الحجاز، وخطوط البرق.

و في الآفاق السياسية، فإنه ساعد السلطان عبد الحميد في انتهاج سياسة تقلل من تكتل الدول الأوروبية ضد بلاده، وعلي مستوى الصحافة عرف بأنه منشئ جريدة «دمشق»، وأحد المحررين في جريدة «سورية» الرسمية. ذكر طرازي (في كتاب تاريخ الصحافة) وتبعه الزركلي (في كتاب الأعلام) نسبه: ابن محيي الدين أبي الهول (المشهور بهولو باشا) بن عمر أغا بن عبد القادر أغا بن محمد أغا بن الأمير قانص العابد من أمراء المشارفة، ينتمي إلى عشيرة عربية تعرف بقبيلة

«الموالي» وتسكن الخيام في بادية الشام بين الزور وتدمر، وتنتسب إلى قبيلة «بكر بن وائل» الحجازية القرشية.

نشأته في ظلال أبيه

ولد أحمد عزت العابد في دمشق، كان والده هولوباشا من كبار موظفي الحكومة العثمانية، وتلقى الابن تعليماً جمع بين العنصرين الديني والمدني، وقد هيا له والده فرص تعليم متميزة، وقرأ في صباه علي المشايخ عبد الرحمن الإسنوي، وأحمد الشطي، وأحمد عابدين، وتعلم مبادئ اللغات التركية والفرنسية والإنجليزية في إحدى الإرساليات وعلي أساتذة مخصصين في بيت أبيه، ثم ألحق بالمدرسة البطريركية في بيروت فأتقن الفرنسية، كما درس علي الشيخ ناصيف اليازجي، الذي كان أستاذاً متميزاً.

بدأ أحمد عزت العابد حياته الوظيفية في وظيفة إدارية بمركز ولاية سوريا في قلم المخابرات التركية و ترقى (١٨٧٣) رئيساً لذلك القلم ولقلم المخابرات العربية، و توالى تحرير القسمين العربي والتركي في جريدة «سوريا» الرسمية ثم أصدر (١٨٧٨) جريدة «دمشق» التي دافع بها عن الدولة العثمانية. عين العابد باشا كاتباً لمجلس إدارة ولاية سوريا (١٨٧٦)، وفي ١٨٧٩ اختير رئيساً لمحكمة الحقوق، ثم مشرفاً عاماً علي المحاكم في ولايتي سوريا وبيروت ولواء القدس، وعهد إليه بإصلاح شئون محاكم جبل لبنان فأتم المهمة بنجاح.

وظائفه القضائية الكبرى

وفي ١٨٨٤ اختير أحمد عزت العابد لتولي مثل وظيفته القضائية الكبرى في ولاية قونية، لكنه اعتذر عن قبولها، وقبل أن يعمل مفتشاً عاماً لمحاكم ولاية سالونيك، وفي ١٨٨٥ عين رئيساً لمحكمة الجزاء البدائية في العاصمة، ثم رئيساً لمحكمتها الاستئنافية. وبعد شهرين عين رئيساً عاماً لمحاكم التجارة الأهلية والمختلطة، وهو المنصب الذي شغله طيلة ستة أعوام، فظهرت موهبته في القضايا التي كان الأجانب أطرافاً فيها، ثم اختير أحمد عزت العابد عضواً لدائرة التنظيمات في مجلس شورى الدولة (١٨٩١). وفي (١٨٩٥) انتدبه السلطان عبد الحميد فعهد إليه بعضوية جميع اللجان المالية وعينه رئيساً للجنة المهاجرين إلى الدولة العثمانية، طيلة ١٣ سنة

حتى الانقلاب العثماني الأول (١٩٠٨)، فخرج إلي لندن أولاً، ثم إلي مصر وسويسرا وفرنسا ثم إنجلترا.

التلغراف من بنغازي إلي طرابلس الغرب

وفي مجال الإنجازات التنموية المبكرة والذكية ، بدأ أحمد عزت العابد خطواته بإنشاء التلغراف من بنغازي إلي طرابلس الغرب، ثم أنشأ خطا لاسلكيا للتلغراف بين «كله مش» التابعة لولاية أزميز وبين بنغازي في طرابلس الغرب، فسهل لعاصمة الدولة العثمانية الاتصال بأقاليمها في شمال أفريقيا، ثم مدّ خطا تلغرافيا بين دمشق والمدينة المنورة وقد تبرع هو نفسه بأكثر أعمدة الخط ، واستعان بما تبرع به أهل الخير في دمشق. ولما طلبت الشركة التلغرافية الهندية رخصة بمد خط مستقل للمخابرات التلغرافية بين أوروبا والشرق الأقصى مع حق السيطرة عليه، رفض منحها هذا الامتياز وأنجز العمل بموارد الدولة في أقل من شهر.

ولما تولى أحمد عزت العابد رئاسة لجنة المهاجرين (مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهرا) أنشأ أكثر من أربعين قرية وأسكن فيها نحو خمسين ألف مهاجر أكثرهم في ولايتي سوريا وحلب. وفي سنة ١٩٠٠ طلب بعض وزراء الدولة عقد قرض لأداء جانب من الديون، فعارض أحمد عزت العابد في هذا واعتمد على إجراءات تقشفية دبر بها ما يفي بتلك الديون ، فرقاه السلطان لرتبة الوزارة ، وقد ساعده نفوذه لدى السلطان عبد الحميد على التمكين للعرب في الوظائف .

أجرى دراسات الجدوى لمد السكة الحديدية

كان أحمد عزت العابد صاحب فكرة مد السكك الحديدية في الأقطار العربية، وقد أجرى دراسات الجدوى وقدر حجم الأخطار والأضرار السياسية والاقتصادية، من التأخر في إنجازها، فأذن له السلطان بمباشرة العمل ، بينما لم تكتمل في يده اعتمادات مالية أو خبرات فنية أو مصادر تمويل، فافتتح أحمد عزت باب التبرع حاثا الشعوب الإسلامية أن يشتركوا في المساعدة، فلبى جميعهم نداءه من مشارق الأرض ومغاربها وتبرعوا بالأموال التي تكفلت بـ٨٥٪ من نفقات المشروع ، وكان يخطط لمد خطين من المدينة المنورة، إلي مكة وجدة وصنعاء واليمن، و إلي البصرة، لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب وقوع الانقلاب العثماني الأول.

إضاءة المدينة المنورة بالكهرباء

لما وصل خط سكة حديد إلى الحجاز إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة و أزكى السلام أدخلت الإضاءة بالكهرباء إلى المدينة المنورة.

اللغات التي أجادها و الكتب التي ترجمها و أوقافه الخيرية

كان أحمد عزت العابد يجيد العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية. وقد نقل من التركية إلى العربية كتاب «حقوق الدول» لحسن فهمي باشا، والمجلد الأول من «تاريخ جودت باشا» ، كما ترجم كتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية» من العربية إلى التركية.

كان أحمد عزت العابد معنياً بالخير وبالإصلاح الاجتماعي ، وقد شيد من ماله الخاص في المدينة المنورة مستشفى يتسع لخمسين مريضاً، وملجأً يتسع لخمسين عائلة، كما أنشأ مدرسة في المدينة المنورة لمائتين من الأطفال، وجعل لهذه المباني أوقافاً مسجلة في الأستانة وفي المحكمة الشرعية بالقاهرة.

تكريمه

نال أحمد عزت العابد كثيراً من التكريم والتقدير المتوالي، فقد أحرز الرتبة الرابعة في عهد راشد باشا والي سوريا ، ثم منحه السلطان (١٨٩٤) رتبة «بالا» مع «الوسام المجيدي الأول»، ثم نال «الوسام العثماني المرصع» مكافأة له علي إنشاء الخطوط البرقية في طرابلس الغرب، و«الوسام المجيدي المرصع» عند إتمامه خطوط البرق ابين الشرق وأوروبا و بين دمشق والمدينة المنورة، و وسام «الافتخار المرصع» بعد نجاحه في إنشاء القري لإسكان المهاجرين، ولما انتهت السكك الحديدية الحجازية إلى عمان أنعم عليه السلطان العثماني بوسام «الامتياز المرصع» مع الميداليتين الذهبية والفضية، وهكذا حاز أحمد عزت العابد جميع أوسمة الشرف العثمانية.

وفاته

توفي أحمد عزت العابد في ١٩٢٤ و ذكر الزركلي أنه توفي في القاهرة، وأن جثته نقلت إلى دمشق.

الباب الرابع

العثمانيون والامبراطوريتان الكبيرتان

الفصل الرابع عشر

بالمواكبة لصعود العثمانيين انتصر

الإنجليز تماما على الكاثوليكية !

غياب التناول الغربي الصريح لبعض الحقائق

نتناول في هذا الفصل حقيقة نادرة من الحقائق التي يتجنب الأوروبيون ذكرها على هذا النحو الصريح على الرغم من تناولهم لها بالفن و الأدب .

وصلت صراعات الإنجليز مع الكاثوليكية الذروة في عصر الملك هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧) الذي تولى ملك بريطانيا ما بين ١٥٠٩ و ١٥٤٧ ثم خلفه أولاده الثلاثة من بعده : الابن إدوار السادس والابنتان ماري الأولى وإليزابيث الأولى التي حكمت حتى ١٦٠٣ .

تبدت هذ الصراعات بوضوح فيما حدث على سبيل التعاقب والتدرج من تعدد زيجات هذا الملك ، وقد كان السبب في تعدد زيجاته تأثره العميق بروح المجتمع في الشرق الإسلامي في التقاليد والتشريع، فمن ناحية التقاليد ، فإنه كان يُجاهر بأن البنات لا يصلحن للحكم ولا للحفاظ على الملكية ، وذلك على الرغم من أن نظم وراثه العرش الإنجليزي كانت (ولا تزال) تسمح بتولّي المرأة ذلك العرش ، لكن هنري الثامن كان مُعتقداً أو مُقتنعاً أشدّ الاقتناع بالنظرية الشائعة في الشرق.

وقد أدى به هذا الاعتقاد إلى أنه استحلّ لنفسه تدرجياً أن يتزوج ست مرات، ومن عجائب القدر أنه كان بمثابة الملك الإنجليزي الذي أنجب ملكتين وملكا ، وبالطبع فقد كانت هناك "عوائق" ضد هذا السلوك ، ومنها العوائق السلفية التي كانت تراه يُحلُّ ما حرّم الله!! وفي خضم هذا الصراع مع السلفية المسيحية اصطدم بالباباوية ، وكان هذا الاصطدام هو السبب الحقيقي في انفصاله بكنيسة إنجلترا عن الكاثوليكية منذ ذلك الحين.

يقولون إنه ظل كاثوليكاً بعد انفصاله بكنيستته الإنجليزية !

ومن الطريف في الأمر أن المؤرخين الدينيين يُصمّمون على القول بأن هنري الثامن ظل في سلوكه كاثوليكياً سلفياً على الرغم من انفصاله بالكنيسة الإنجليزية عن الكنيسة الكاثوليكية وقطع صلة بريطانيا بها، وقد ساعده على هذا الإنجاز العقائدي والسيادي أنه كان خطيباً مؤثراً ومُثَقِّفاً مُتَمَكِّناً، ولا ننسى أنه هو الذي تمكّن من تحقيق وحدة ويلز مع إنجلترا بالقوانين الاتحادية التي أصبحت فاعلة بدءاً من ١٥٣٥، كما أنه وليس غيره هو الذي مهد لأمريكا التي كانت في الغيب أن تكون بروتستانتية، فكانت أكبر ضربة عانتها الكاثوليكية .

لم يجد حلاً إلا فيما تقول به الشريعة الإسلامية

مع كل هذه الإنجازات التي أنجزها هنري الثامن، فإن المصادفات لعبت أثرها في حياته، ذلك أنه لم يكن مُرشحاً لخلافة والده هنري السابع، لكن أخاه الأكبر ولي العهد آرثر توفي فجأة في ١٥٠٢ بعد ثلاثة شهور من زواجه من كاترين أراجون ١٤٨٥ - ١٥٣٦ صُغرى بنات الملكين المسيحيين إيزابيلا وزوجها زيمي التعصّب الإسباني ضد الإسلام .

كانت إيزابيلا قد خطّطت (!) بهذا الزواج لأن يصبح عرش إنجلترا ضمن العروش الأوروبية المُحاربة للإسلام إذ جعلُ ابنتها كاترين قرينة لملك إنجلترا وأماً لأي ولي للعهد، فلما ترملت كاترين في هذا السن المبكر لجأ العرشان الإنجليزي والإسباني إلى ما سمعاه عن التشريعات الإسلامية التي تُبيح زواج الأخ من أرملة أخيه، لكن الأمر في الكاثوليكية لم يكن وقتها بهذه السهولة التشريعية الإسلامية، وإنما كان يقتضي موافقة باباوية.

التتويج ثم الطلاق

وبعيداً عن التفاصيل التاريخية والضغط والمساومات والإلحاحات، فقد تُوج الملك هنري الثامن وزوجته بعد زواجهما بأسبوعين في كنيسة وستمنستر، وبعد أربع سنوات قادت هذه الزوجة الإسبانية جيوش زوجها فألحقت هزيمة بجيش الاسكتلنديين الذي كان يقوده جيمس الرابع ملك إسكتلندا زوج شقيقة زوجها. ثم تدور الأيام ويرغب هنري الثامن في تطليق زوجته (بدعوى عدم قُدرتها على إنجاب

وريت ذكر ، فقد كان أبناؤها الذكور يموتون) وذلك تمهيداً لزواجه من عشيقته أن بولين التي اشترطت عليه أن تكون ملكة لا عشيقة، وهكذا فسخ هنري الثامن زواجه من زوجته مدينا نفسه بنفسه في زواجه منها الذي لم يتم إلا بموافقة البابا عبر وساطات وضغوط طال وقتها .

سلطة الملك تعلو سلطة الكنيسة

وقد قادت حلحلة هذه النزاعات تلقائياً إلى جعل سلطة الملك تعلو سلطة الكنيسة على النحو الذي يُصادف الحكام الطُّغاة الذين يستندون إلى الدين ثم ينقلبون على الدين نفسه.. ولجأ هنري الثامن من جديد إلى تنسم رائحة ما تخله شرائع المسلمين في الأحوال الشخصية ، وتصادف هذا مع اجتماع ملك الإنجليز في كاليه بحليف المسلمين أي فرنسوا الأول ملك فرنسا المُتحالف مع سليمان القانوني ، وبدأ الملك هنري الثامن إجراءات الزواج بإعلان بطلان الزواج القديم وصحة الزواج الجديد. وصدّق البرلمان على كل هذه "المُخالفات" الكاثوليكية، بل وصل الأمر إلى اعتبار (الملكة) ماري ابنته من زوجته الأولى كاثرين ابنة غير شرعية ، مع ما كان لها من نسب خطير.

وهكذا فإن التطوير في سلوكيات رجال الكهنوت المسيحي لم يصل إلى استيعاب جوهر التوافقات الإنسانية في تعاليم الإسلام التي تجعل الزوجة السابقة سابقة فقط أو مُطلقة ، وإنما بقي الفكر السلفي المسيحي حتى ذلك الوقت قادراً ومصمماً على أن يجعلها غير شرعية من الأساس ! وكلك ابنتها، على نحو ما فعل الملك هنري الثامن بهذه الابنة (الملكة فيما بعد) ذات النسب الخطير، وإن كانت الأجواء ذات الرائحة العثمانية قد مكنت الإنجليز وملكهم بعد فترة قصيرة من الزمن من الوصول إلى وضع قريب من التشريع الإسلامي في احترامه للإنسانية.

تصوير شكسبير لإعدام زوجته الثانية

على أن حظ زوجته الأولى هذه كان أفضل من حظ زوجته الثانية (أم ابنته الثانية الملكة إليزابيث الأولى) التي حُكم عليها بالإعدام فجري إعدامها وهي جاثية على ركبتيها في ١٥٣٦ على النحو الذي صوره شكسبير ولم تكن ابنتها الملكة قد وصلت الثالثة من عمرها .

مصير زوجاته الثالثة والرابعة والخامسة

من الجدير بالذكر أن زوجته الثالثة أنجبت ابناً ذكراً في ولادة متعسرة، لكنها ماتت بسبب الولادة (١٥٣٧) وأن زوجته الرابعة فضلت أن تستسلم وتُعطيه المُبرر لطلاقها على أن تتمسك بحقوقها، وأن زوجته الخامسة أعدمتم (كالثانية) في ١٥٤٢

فضل زوجته السادسة

يذكر التاريخ لهذه الزوجة أنها قادت زوجها هنري الثامن لإعادة الاعتراف بابنتيه من زوجته الأوليين، وهكذا فقد ورثه في عرشه ابنه (الوحيد) من زوجته الثالثة والمُسمى إدوارد السادس (١٥٣٧ - ١٥٥٣) وقد توفي قبل أن يبلغ السادسة عشرة من عمره بمرض السل، بعد ما نودي به وتُوج (١٥٤٧) وخلفته أخته الملكة ماري الأولى (١٥١٦ - ١٥٥٨) التي هي أولى بنات الملك هنري الثامن، وقد حكمت لخمس سنوات توفيت بعدها وهي في الثانية والأربعين من عمرها، بعد أن تزوجت من فيليب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨ ملك إسبانيا وحفيد خالتها، والذي ورث والده الإمبراطور كارلوس الرابع، لكنهما لم ينجبا.

محاولة الملكة ماري للعودة ببريطانيا الى الكاثوليكية

ولأن الملكة ماري الأولى كانت كاثوليكية متعصبة مثل جدتها إيزابيلا، فقد كان من الطبيعي أن تسعى لأن تعيد بلادها إلى معسكر الكاثوليكية، وهو ما قامت به بالفعل وبقسوة شديدة استحققت معها لقب ماري السفاحة مذكرة لنا بما فعله المسلمون في تسمية الخليفة العباسي الشهير، و يكفي أن نذكر أن أكثر من ثلاثمائة شخص أعدموا حرقاً بسبب انتمائهم الديني، بيد أن عهداً سرعان ما انتهى بوفاتها وهي في الثانية والأربعين من عمرها وخلفتها أختها الملكة إليزابيث الأولى.

الدور المفصلي للملكة إليزابيث الأولى

لعبت الملكة إليزابيث الأولى ١٥٣٣ - ١٦٠٣ بالملكة العذراء وبالملكة المباركة، وعاشت سبعين عاماً كاملة، و حكمت منها ٤٥ عاماً ما بين ١٥٥٨ وحتى وفاتها، فتمكنت من ترسيخ البروتستانتية في إنجلترا من ذلك الحين وحتى الآن، بدءاً من إقامة الكنيسة الإنجليزية البروتستانتية وتوليها منصب الحاكم الأعلى لها، وذلك على

الرغم من تأليب البابا الكاثوليكي لرعاياها ضد حكمها ، لكن ذكاءها وبعدها عن الحروب ساعدها على النجاح والاستمرار رغم محاربة معسكر الممالك الكاثوليكية.

معركة الأربع ثمانيات

ولم يكن بد من معركة فاصلة بين إنجلترا والكاثوليكية، فكانت المعركة التي نسميها معركة الأربع ثمانيات ١٥٨٨ /٨/٨ التي انهزم فيها الأسطول الإسباني الشهير "الأرمادا" وتحقق فيها للإنجليز أعظم انتصاراتهم العسكرية على مدى التاريخ ، وقد كان من أهم أسباب هذا الانتصار ما كان قد لقيه الإسبان وحلفاؤهم في السنوات السابقة من الإنهاك في المعارك المتواصلة مع العثمانيين ، ومنها معركة الملوك الثلاثة في ٤ أغسطس ١٥٧٨ التي انتهت بها دولة البرتغال وملكهم سبستياو ليرته خاله الملك الإسباني فيليب الثاني الذي انهزم في معركة الأربع ثمانيات أمام الإنجليز بقيادة ملكتهم إليزابيث ، ومن الطريف أنه هو نفسه كان زوجا لأختها الملكة السابقة ماري الأولى.

الفصل الخامس عشر

عودة إلى الملك الإنجليزي الذي تأثر بالعثمانيين

فتزوج ٦ مرات وانشق عن الكاثوليكية

كان صعود الدولة العثمانية في عصر السلطان سليم الأول ١٥١٢ - ١٥٢٠ وابنه سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦ بمثابة أكبر تحد فكري و ثقافي فرض نفسه على ملوك أوروبا المتقفين أو المولعين بالثقافة ، وذلك على نحو ما كان أكبر تحد استراتيجي فرض نفسه على ملوكها المتعصبين والاستعماريين . والقارئ لقصة حياة هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧) الذي حكم بلاده ما بين ١٥٠٩ و ١٥٤٧ (ولقصة تعاقب حياة ذريته من بعده) يدرك هذا المعنى بكل وضوح ، وإن كان الغربيون لا يتناولون تاريخه من هذه الزاوية أبدا ، والسبب مفهوم بالطبع.

رأى الحل في التحرر من الكاثوليكية

بلغ تأثر هنري الثامن بما كانت المقارنات مع المجتمع العثماني تتيح فرصته له من التفكير أنه وجد ضرورة قصوى في أن يتحرر من الكاثوليكية وأن يستقل بالكنيسة الإنجليزية ، ويبدو بوضوح أنه لو كان قد وجد من يصوغ له إطارا فكريا لمذهب مسيحي جديد لجعل الكنيسة الإنجليزية منبعا لهذا المذهب ، لكنه على كل حال حول كنيسته الوطنية لتكون كنيسة إنجليزية بروتستانتية ، وذلك بأن فصل كنيسة إنجلترا عن سلطة الباباوية .

ولم يقف هنري الثامن عند هذا الحد وإنما حلّ الأديرة وعيّن نفسه رئيسا لكنيسة إنجلترا ، وإن ظل مع هذا كله في نظر بعض المؤرخين مُرتبطا بالتعاليم الكاثوليكية، ومن ثم فإنه يمكن اعتباره كما أشرنا في مواقع أخرى من كتاباتنا بمثابة المسئول الحقيقي عن تمذهب أمريكا نفسها (ومن تبعها) بالبروتستانتية ، وذلك على الرغم من أن ابنته الكبرى الملكة ماري حاولت العودة ببريطانيا إلى الكاثوليكية .

و من المعروف أنه على الصعيد السياسي ، فإنه هو الذي أتمّ اتحاد إنجلترا وويلز، ومن الطريف أيضا أنه حارب الملك جيمس الرابع (١٤٧٣ - ١٥١٣) ملك إسكتلندا الذي كان ملكا لإسكتلندا منذ ١٤٨٨ ، مع أنه كان زوج أخته ، وقد انتصر جيشه على زوج أخته في معركة ١٥١٣ التي قُتل فيها زوج أخته عن أربعين عاما، وقد قادت جيشه في هذه المعركة زوجته الأولى كاثرين الإسبانية ابنة الملكين إيزابيلا و فيرناندو .

كثرة لجوئه الى الإعدام

بالإضافة لهذا كله ، خاض الملك هنري الثامن معارك فكرية و شخصية متعددة وصل فيها إلى معضلات و إشكاليات حرجة دفعته إلى أن يعدم فيها (من دون أي قدر من الرحمة) كثيرا من أقربائه و أنسابه و وزراءه ومستشاريه و مفكريه و شعبه ، ولو أنه كان قد درس الدين الإسلامي دراسة منهجية ، لكان قد انتفع بكثير من مقارباته الفقهية والفلسفية و عبر بسلام كثيرا من هذه المشكلات الضخمة التي قابلته ، وليس كلها بالطبع .

ويكفي لتصوير حجم بعض هذه المشكلات أن نشير على القارئ بقراءة مسرحية شكسبير التي تحمل اسم هنري الثامن كما يكفي لتصوير حجم بعض هذه المشكلات أن نذكر أنه أعدم زوجته الثانية والخامسة رغم ما كان بينه وبينها من حب .

كما يكفي لتصوير طبيعة هذه المشكلات أن نذكر أنه استن قانونا جعل فيه ابنتيه من زوجته الأولى والثانية بمثابة ابنتين غير شرعيتين ثم عاد قبيل وفاته فاعتبرهما شرعيتين ، وقد قدر لابنتيه هاتين أن تكونا بمثابة ثاني وثالث خلفائه بعد ابنه من زوجته الثالثة .

قيّمته بين الملوك المعاصرين له

كان هنري الثامن هو ملك إنجلترا وإيرلندا المعاصر لثلاثة أقطاب مؤثرين في تاريخ الإنسانية : سليمان القانوني وفرنسوا الأول ، و كانا يصغرانه بثلاثة أعوام و كارلوس الخامس الذي كان يصغره بتسعة أعوام ، وكان هنري الثامن نفسه زوجا لكاترين ١٤٨٥ - ١٥٣٦ خالة كارلوس الصغرى (هو زوجها الثاني بعد أخيه إدوار الذي توفي وهو ولي للعهد) ، لكنه على سبيل الإجمال و رغم معاركه لم يكن له انغماس شديد في شرور الحروب والتعصّب مثل كارلوس الخامس ، وإن كان قد طالب مثلا بحقه في ملك فرنسا، وقد انضوى منذ ١٥١١ في التحالف المقدّس ضد فرنسا الذي لم ينفذ فرنسا فيه إلا تحالفها مع العثمانيين .

ومن الطريف أن هنري الثامن كان معنيا بالفنون والثقافة مثل سليمان القانوني ومثل فرنسوا الأول ، كما كان شغوفًا بالتأليف الموسيقي وبتأليف الشعر، و يعلم العقيدة مثل كارلوس ، وذلك رغم على الرغم من غرامه بالميسر وحبه للقمار.

إعدام المُفكر البريطاني توماس مور

ربما نعرف أيضا أن هنري الثامن هو الذي أعدم المُفكر البريطاني العبقري توماس مور ١٤٧٨ - ١٥٣٥ المعروف بلقب رجل لكل العصور ، و قد أعدمه لأنه لم يوافق على طلاق الملك نفسه من الملكة كاترين ، بل إنه استقال من منصبه كوزير للعدل (١٥٣٢) لهذا السبب بعدما كان قد عُيّن فيه (١٥٢٩). و نعرف أيضا أن زوجته الأولى كاترين أراجون ماتت ١٥٣٦ عن ٥١ عاما، بعدما شهدت زواج الملك رسميا من خمس زوجات تاليات لها.

رد فعله على حل المشكلة الكهنوتية في زيجته الأولى

ربما كان من أسباب زهد الملك هنري الثامن في الكاثوليكية أن البابا نفسه طوعه في إتمام زواجه الأول بحيلة غير منطقية ، فقد كان الحل الذي استغرق الوصول إليه أكثر من سنة أن أقسمت كاترين ابنة إيزابيلا أن زواجها من الأمير آرثر شقيق هنري الثامن لم يكتمل!! وجاء هذا الحل استجابة لإلحاح أمها الملكة إيزابيلا الشديدة على البابا يوليوس الثاني ١٤٤٣-١٥١٣ لإتمام الزواج ، حتى إن هذا البابا في النهاية أصدر مرسوما بابويا يتضمن ما سمي بالإعفاء البابوي.

ومع هذا ، فإن هنري الثامن نفسه فيما بعد (وهذه هي المفارقة) أعلن أن هذه الزيجة تم ترتيبها بدون موافقته ، كما أن أباه هنري السابع تراجع عن فكرته في الحلف مع إسبانيا ، لكن الملكة إيزابيلا بتعصبها وطموحاتها التوسعية ظلت تدفع الجميع إلى إتمام الزواج، فلما أتم هنري السابعة عشرة من عمره عقب وفاة أبيه تم الزواج في يونيو ١٥٠٩ وتم تتويج الملك و زوجته بعد أسبوعين ، و ظنت إيزابيلا أن عرش بريطانيا سيكون بيد ابنتها لكن الأمور انقلبت على أعقابها.

هكذا كان هنري الثامن أول ملك بريطاني يتزوج ٦ مرات ، لأنه ظل يتمنى أن يخلفه ذكر من أبنائه ، فلما رزق بالذكر من زوجته الثالثة اشتاق إلى أكثر من ذكر.

الفصل السادس عشر

بدايات عصر النهضة الفرنسية بالتحالف مع الدولة العثمانية

قلب الطابع الباريسي عثماني

أبدأ فأذكر أن كل من زار باريس العظيمة ولو على الورق يُلاحظ اهتمامها الذي يصل حد التبجيل والتقدير بمبانيها ذات الطابع الباريسي التي يُسميها الباريسيون بالعمارات العثمانية ونُسميها نحن العرب بالباريسية ، لأننا نحقد على العثمانيين بسبب مُحاولتنا المريضة لنفي الأخ القريب ، أما الفرنسيون فإنهم حتى يومنا هذا

لا يزالون يُسمّون مبانيهم الجميلة بالعثمانية، وقد وصل أوجُ هذه المباني إلى القمة على يد المهندس المعماري العظيم الذي أسّس باريس الجديدة مُستلهما هذا الطراز العثماني الذي يُحافظ عليه الفرنسيون بقدر ما يُحافظون على صحتهم ومواردهم و أموالهم.

وفي الواقع فإن هذا الاعتزاز كان نتوجيا لمرحلة استمرت قرنين ونصف من الزمان ثم انقطعت بسبب حملة نابليون على مصر التي يُسمّيها المصريون بالحملة الفرنسية مُبرّنين لها من غايتها التي لم تُحقّقها وهي الاحتلال، ومن الإنصاف أن أكرر هنا ما أُشرتُ إليه أكثر من مرة أن أبناء الجزيرة العربية وأرض الحجاز كان لهم الفضل الأكبر في الدفاع عن مصر وحمائيتها من الفرنسيين الغزاة، وردهم على أعقابهم بعدما كانوا قد ارتكبوا من الفظائع والمجازر والانتهاكات ما لا يزال التاريخ يذكره، وحقّ على الفرنسيين أن يخلجوا من ارتكاب بعض أجدادهم له.

الأدبيات الفرنسية والأوربية تسميه التحالف

أما بداية التعاون العثماني الفرنسي الذي وصل إلى حد التحالف ، بل سُمّي بهذا الاسم في الأدبيات الفرنسية والأوربية على وجه العموم ، فقد بدأ في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (١٤٩٤ - ١٥٦٦) ، والذي تولى الخلافة لأطول مدة قضاها خليفة عثماني (٤٦ عاما) ما بين (١٥٢٠ - ١٥٦٦) كان عمره فيها ما بين السادسة والعشرين من عمره ونهاية العمر في الثانية والسبعين.

أما ملك فرنسا فكان هو الملك فرنسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) الذي ولد في نفس العام الذي ولد فيه سليمان القانوني ، وحكم فرنسا لأكثر من ٣٢ عاما ما بين أول يناير ١٥١٥ وحتى وفاته في مارس ١٥٤٧ أي أنه تعاصر هو و سليمان القانوني كحاكمين (٢٧ عاما) ما بين ١٥٢٠ وحتى ١٥٤٧ وإن كان فرنسوا قد حكم ٥ سنوات قبل حكم سليمان القانوني، كما أن سليمان القانوني حكم ١٩ سنة بعد وفاة فرنسوا الأول، وقد حكم فرنسا في هذه السنوات كل من هنري بن فرنسوا الأول ثم أبناؤه فرنسوا وشارلز وهنري أي أن سليمان القانوني عاصر حكم فرنسوا الأول وابنه الوحيد وأحفاده الثلاثة.

تاريخ سليمان القانوني مُشرّف ومعروف، وتاريخ فرنسوا الأول معروف ومُشرّف كذلك ، وقد شهد كثيرا من الانتصارات على السويسريين وعلى الإيطاليين، وصلت إلى حد استيلائه على ميلانو في خضم صراعه مع أبرز معاصريه المسيحيين كارلوس الخامس (١٥٠٠ - ١٥٥٨) الذي كان ملكا لإسبانيا (١٥١٦) وأضاف إليها أرشيدوقية النمسا (منذ يناير ١٥١٩) وإمبراطورية ألمانيا وإيطاليا (منذ يونيو ١٥١٩) ليصبح بهذا مستحقا لقب الإمبراطور الروماني المقدس.

خروج العالم الكاثوليكي من أسر الكهنوت

إلى هذا التحالف بين سليمان وفرنسوا يعود الفضل (الذي لم يذكره ولم ينكره المؤرخون الأوروبيون) في بداية الخروج الحقيقي للعالم الكاثوليكي من أسر الكهنوت. في المواجهة مع كارلوس الخامس وإمبراطوريته التي كانت أول إمبراطورية أوروبية يُطلق عليها الوصف القائل بأن الشمس لا تغيب عنها، لأنها كانت تضم كل مستعمرات إسبانيا في الأمريكيتين ، لكن تحالف فرانسوا الأول مع سليمان القانوني جعله ندًا قويا للإمبراطور الروماني المقدس ، ولولا هذا التحالف لسقطت فرنسا كلها في قبضة كارلوس الخامس إمبراطور إسبانيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والأمريكيتين ، بل إن هذا التحالف مع العثمانيين هو الذي ساعد شمال ألمانيا على النجاة من المفاهيم السياسية البطريركية العتيقة لهذه الكاثوليكية الرومانية التي كان أصحابها لا يكفون عن الالتفاف حولها باعتبارها مُقدّسة ، وباعتبارها أكبر سند للحكم الأوتوقراطي الذي قاومه عقليات أوربا كثيرا حتى استطاعت التخلص منه على عدة محاور متوالية ، كان منها الإصلاح اللوثري والثورة الفرنسية .

انتقال ثمار الحضارة الإسلامية

على أن الأهم من هذه المزايا والمكاسب الاستراتيجية كان ما حدث من ازدهار العلم في أوروبا ، حيث انتقلت ثمار الحضارة الإسلامية بفضل هذا التحالف القوي والمتشعب في اتجاهاته وميادينه بين السلطان سليمان القانوني الذي هو في الأصل وقبل وصف القانوني: سليمان الأول ، وبين فرانسوا الأول ، وهو أول إمبراطور أو ملك فرنسي يحمل الاسم المشتق من الفرنسية نفسها.

بفضل هذا التحالف عرفت أوروبا (من خلال فرنسا) تراث العالم المسلم نصر الدين الطوسي ١٢٠١- ١٢٧٤ وإنجازاته في علم الفلك من خلال التبادل العلمي الذي أتاحته قنوات التحالف وبهذا انتهى الاعتقاد في مسئولية الشياطين عن الظلام والإظلام ... الخ .

الكوليج دي فرانس أسست لتكون كلية للغة العربية

بل عرفت أوروبا من خلال هذا التبادل معنى المؤسسة العلمية التعليمية المرتبطة بالمكتبة ، فنشأت الكلية الملكية على غرار مكتبات المسلمين، وهي المكتبة/ الكلية التي تحولت مع الزمن إلى الكوليج دو فرانس وكان للغة العربية منهج ومقرر دراسي أساسي و جوهري في هذه المكتبة/ الكلية بل يمكن إدراك أنها تأسست لتدريس اللغة العربية مع التظاهر باسم اللغات الثلاث كي لا يكون الاعتراف تاما و مكرسا .

الاقتداء بالازدواج اللغوي عند العثمانيين

و في عهد فرنسوا الأول توجهت العناية إلى اللغة الفرنسية على الرغم من بقاء اللاتينية في مكانها التقليدي في الكنائس، وقد كان هو صاحب القرار باستخدام اللغة الفرنسية في دواوين الحكومة والمحاكم والسجلات على نحو ما كان العثمانيون يستخدمون التركية مع اللغة العربية التي هي لغة العبادة.

وكان الملك الفرنسي في كل هذه القرارات متأسيا بذلك النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في ذلك الوقت من اعتزازها باللغة التركية وحرصها على ارتباطها باللغة العربية وتراثها الفكري الذي اجتمعت فيه ذخائر كل التراث السابق على تراث المسلمين من اللاتين والهنود والفرس والرومانيين... الخ.

ظهور فضل التسامح الديني

وبفضل موجة التسامح الديني الذي كانت الدولة العثمانية مضرب المثل فيه ، حتى بعد فتوحها في شرق أوروبا على يد سليمان القانوني نفسه ، بدأ فرنسوا الأول سياسة متسامحة مع البروتستانت، كانت من أسباب ازدهار البروتستانتية في ذلك الوقت، لكن تفاعل الأحداث فيما بعد ذلك جعل التوجه الفرنسي نحو التسامح الديني يتدهور بسرعة و ينتكس ويصل إلى حدود التعنت والتعسف ضد البروتستانتين ،

ذلك أن عقيدة التسامح الديني لم تكن وصلت على ما وصلت إليه من تغلغل عند العثمانيين بحكم شريعة دينهم الإسلامي القادرة على تقبل التنوع وتكريسه .

أسباب تفضيل فرنسا للعثمانيين

وعلى عكس ما هو متوقع من السمعة الغالبة على العلاقات الدولية والأوربية الآن ، فإنه طوال قرنين ونصف من عهد فرنسوا الأول وحتى الثورة الفرنسية كانت الدولة العثمانية بمثابة الملاذ المفضل لفرنسا في علاقاتها الأوروبية ، وكان لهذا التفضيل ثلاثة أسباب جوهرية (بلغه عصرنا الحالي):

- أولها: مواجهة اليمين المتطرف الذي يُمثله العرش الإسباني وامتداداته .
- ثانيها: التطلع إلى الإفادة من الأنماط العلمية والحضارية التي تفوق فيها العثمانيون والمسلمون على وجه العموم .
- ثالثها: حماية الكيان الفرنسي ذي الموقع المتوسط من تحالفات البريطانيين في الشمال والألمان في الشرق والإسبان في الغرب والطلينان وغيرهم في الجنوب ، وهي تحالفات كانت كفيلة باستقطاع مساحات كثيرة من فرنسا حتى لا تُبقي من فرنسا شيئاً إلا وقد توزّع.

الفصل السابع عشر

لولا تعاون باريس مع العثمانيين لعادت الإنسانية إلى العصر الحجري

صعود ثلاثية الاتساع والقوة و الشر

من عجائب التاريخ الإنساني أن الإمبراطورية التي تكونت أو تجمعت في يد الإمبراطور الروماني المُقدّس كارلوس الخامس (١٥٠٠ - ١٥٥٨) كانت تملك درجات غير مسبوقه من أربعة عناصر : الاتساع والقوة والتعصب والشر ، وكانت حصيلتها من هذه العناصر الأربع لو لم يوقفها غيرها عند حدها كفيلة بأن تُعيد الحضارة الإنسانية كلها حُطوات كبيرة إلى عصور ما قبل التاريخ، أو فنقل العصر الحجري ، فقد كان هذا الإمبراطور الشاب القوي رجل عُنف وتعصّب وسلاح

وسيطرة، و كان بحكم مسار حياته ضيق الأفق، مُعْتَرَاً بالقوة والجبروت، وكان هو نفسه نتاج نسب التعصّب مع التعصّب، وقد آلت إليه مكونات هذه الإمبراطورية بطريقة لم تتكرر كثيراً في التاريخ الإنساني كله ، فقد ورث إمبراطوريات أجداده الأربعة على نحو توالت المفاجآت فيه ، فأصبح قبل أن يصل العشرين من عمره صاحب أول إمبراطورية يُطلق عليها عن استحقاق التعبير البلاغي القائل بأنها لا تغيب عنها الشمس، وقد بدأت هذه الإمبراطورية تتكون له وتعدّه بأن يكون صاحبها حين كان لا يزال في الخامسة من عمره .

مواجهة الإمبراطورية الطاغية

ومن دون أن نشغل القارئ إلا بالقدر القليل من التفاصيل السياسية والجغرافية المرتبطة بالتاريخ، فإننا سنُلخّص تكوين هذه الإمبراطورية الضخمة التي كانت كفيلة بإرجاع الإنسانية كلها إلى عصور الظلام لولا هذا التحالف النبيل بين سليمان القانوني (خليفة المسلمين) وفرنسوا الأول (ملك فرنسا) وهو التحالف الذي تحدّثنا عن نشأته في كثير من كتاباتنا ، وذكرنا أنه كان بمثابة السبب في بدء نهضة فرنسا الحضارية التي لا تزال مُتفوّقة على إسبانيا والبرتغال ، وذلك على الرغم من اتساع إمبراطورية كارلوس الخامس، وهو ما يدُلُّنا على أن للتحالفات الذكية آثاراً حضارية تفوق النصر العسكري (أو الهزيمة) بمراحل، وربما كان المثل الذي نصره هو أبرز دليل على انتصار رؤية الفهم الحضاري للتاريخ في مُقابل الفهم الاستعماري أو العسكري المرتبط بِرُقعة الأرض والنفوذ.

ومن العجيب أن ما كسبته فرنسا من تحالفها مع العثمانيين على مدى أكثر من قرنين ونصف يفوق كل مكاسبها في الحقبة الاستعمارية البغيضة التي أصابت أخلاق الفرنسيين بكثير من الأمراض التي يجاهدون في علاجها حتى الان .

معركة نيس الحضارية الفاصلة

كانت المعركة الحضارية الفاصلة التي أوقفت طُغيان كارلوس الخامس للأبد هي معركة ١٥٤٣ البحرية التي قادها القائد العثماني خير الدين بربروس ١٤٧٨- ١٥٤٦ لإنقاذ فرنسا من كارلوس الخامس وتحرير مدينة نيس فخر المدن البحرية الأوروبية جميعاً ، وقد كان أسطول العثمانيين في هذه المعركة يضمّ مائة سفينة ،

وثلاثين ألف جندي و كان من حظهم و حظ الإنسانية الفوز بالنجاح في تحرير مدينة نيس من جيوش الرومان والمتحالفين معهم وطردهم من هذه المنطقة الساحلية.

القاعدة العثمانية في مدينة طولون الفرنسية

ونتيجة لهذه المعركة ودعما للانتصار الذي تحقّق فيها بالتحالف بين العثمانيين والفرنسيين ، فقد عرض الملك فرانسوا الأول بذكائه على العثمانيين إقامة أول قاعدة بحرية استراتيجية ذات قيمة تاريخية ، وهي القاعدة العثمانية ، التي عرفتها أدبيات المسلمين باسم طولون، وذلك في مقابل مساعدة الفرنسيين للعثمانيين في تحرير تونس من اعتداء الإسبان.

إنقاذ فرنسا من طغيان كارلوس الخامس

ولولا مشاركة العثمانيين والبحرية العثمانية لابتلع كارلوس الخامس كل ملك فرانسوا الأول رغم ما كان تم بينهما من نسب ، حيث تزوج فرانسوا الأول من أخت كارلوس ١٥٣٠ بعد انتصاره عليه وأسر له ١٥٢٥ ..

بل ربما كان ممكنا لهذا النسب أن يكون فرصة الانطلاق لكارلوس ليُضيف فرنسا إلى مُمتلكاته التي آلت إليه مُعظمها بالوراثة وحكم النسب.

الصيغة المبكرة لتوازن القوى الأوروبية

وبتأسيس وبناء قاعدة طولون البحرية عاشت أوروبا والعالم القديم استقرارا حقيقيا قائما على توازن القوى ، كما انتقلت الحضارة الإسلامية إلى فرنسا ، بينما ظلت جاراتها أقل حظا من التعاون الحضاري مع المسلمين الذين كانوا في ذلك الوقت أكثر تقدّما من غيرهم. و من الجدير بالذكر أن سليمان القانوني كان قد استطاع تحقيق نجاحاته المُتعدّدة الكثيرة في وجود الإمبراطور كارلوس الخامس إلا نجاحا واحدا لم يتمكن منه سليمان القانوني وهو فتح فيينا ، وهي المعركة التي أخرت تقدم أوروبا قرنين من الزمان.

حماية الإنسانية من التعصب الديني

و الشاهد أن المتأمل لتفصيلات الحياة السياسية الأوروبية في القرن السادس عشر ، وهي أولى الفترات المُعاصرة لازدهار الدولة العثمانية ، يستطيع أن يرى وأن

يدرك أن الحضور السياسي الفاعل لهذه الدولة وقوته كان هو الذي حمى الإنسانية والعالم القديم و أوروبا من أن تقع فريسة سهلة للتعصب الديني الذي كان يتسارع في خطواته بعد سيطرة الملكة إيزابيلا وزوجها فرناندو على إسبانيا بعد إخراج المسلمين من الأندلس، وقد سوّلت النجاحات الأندلسية لإيزابيلا أن تُخطط حياتها ومُصاهرتها الملكية، بحيث تُسيطر على القارة الأوروبية بأكملها ونجحت في هذا إلى حد بعيد.

فقد تمكنت إيزابيلا بالنسب والمُصاهرة هي وسُلالتها من الاستيلاء على عروش قشتالة و أراجون و ألمانيا والنمسا والبرتغال وإيطاليا وبريطانيا و الدنمرك والسويد والنرويج والمجر و بوهيميا وكرواتيا وهولندا وبورجندي .. الخ، ولم يخرج من هذه الغابة المُتشابكة من الصلات العائلية جزئيا إلا فرنسوا الأول، رغم أنه كان مُشتبكا بها اشتباكا غير وثيق في موضعين، وقد عاونه على هذا الخروج عامل واحد فقط هو قوّة العثمانيين والسلطان سليمان القانوني الذي كان معروفا في فرنسا باسم سليمان العظيم، وقد كان عظيما حقا ولولا وقوفه إلى جانب فرنسا وفرنسوا الأول لمضت الأمور في سبيل سيطرة الفكر المُتعصب إلى حد انفراده بالحكم في كل أوروبا، ومن ثم الدخول إلى عصر انفراد الكهنوت بالسيطرة التامة على كل شيء بما يكفل تسريع العودة إلى العصر الحجري في عقد أو اثنين من السنوات.

لكن إرادة الله مكّنت فرنسوا الأول أن ينجو بفرنسا ومن ثم أوروبا من هذا النفق المظلم بتعاونه وتحالفه مع سليمان القانوني، وهو التحالف الذي حافظت عليه الدولتان قرابة ثلاثة قرون حتى قامت الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر.

الفصل الثامن عشر

من أجل مجاملة فرنسا اضطربت الميزانية العثمانية نصف قرن

أول نموذج للحروب الباهظة

ببساطة شديدة فقد شهدت ميزانية الدولة العثمانية أكبر اضطرابات على مدى تاريخها بسبب حرب القرم، ولم يكن للعثمانيين ولا لنظرائهم من الأوروبيين عهد يمثل هذه الاضطرابات حتى ذلك الحين، فقد كانت الحروب حتى ذلك الوقت تسفر

عن أوضاع يمكن وصفها بأنها حدية أي عن نصر مصحوب بمكاسب أو خسارة مصحوبة بإفلاس لكن أول الحروب التي كان النصر فيها مصحوبا بشبه إفلاس كانت هي حرب القرم ، وهو ما تكرر بعد ذلك بصورة أعنف في عدة حروب كانت أبرزها الحرب العالمية الثانية التي خرجت الدول المنتصرة فيها وهي تعاني أشد المعاناة من نزيف الخسائر المادية التي لم تنقطع في اثناء الحرب ثم تزايدت بعدها.

الاندفاع السهل إلى الاقتراض

ومن العجيب أن الدولة العثمانية حين وجدت ميزانيتها تعاني بسبب نفقات الحرب لم تلجأ إلى السبل الكفيلة بجز صوف الأثرياء ، وإنما استسهلت أن تلجأ إلى الاقتراض، وكانت البيوت المالية الفرنسية والبريطانية جاهزة تماما بعروض الإقراض على النحو (الأكثر شهرة) الذي مارسه أيضاً بعد سنوات قليلة مع الخديو إسماعيل ١٨٣٠- ١٨٩٥ الذي كان مسرفاً أشد الإسراف في الاعتماد على القروض لتمويل مشروعاته الممتازة وسفهه المفرط على حد سواء.

ومع أن الدولة العثمانية لم تصل في اقتراضها إلى سفه وخطورة ما وصل إليه الخديو إسماعيل فإن قروض هذه الدولة التي كانت قد تعودت إجمالاً على الانضباط المحاسبي سرعان ما ظهرت للعيان بوضوح، وكانت سبباً من أسباب ضعف صورتها العامة ثم كانت ، ثالثاً ، سبباً من أسباب ضعف قدراتها التفاوضية، ثم كانت سبباً من أسباب التقلص في قيمتها الاستراتيجية بين الدول المتناحرة معها.

جوهر الأحقاد و الاستراتيجيات في حرب القرم

استمرت حرب القرم ما بين أكتوبر ١٨٥٣ و فبراير ١٨٥٦ ، (في مصر فقد بدأ عهد الوالي محمد سعيد باشا في ١٨٥٤ واستمر حتى ١٨٦٣) أي أن حرب القرم صادفت السنوات الأولى من عهد الوالي محمد سعيد باشا، ووقفت الدولتان الأوربيتان الكبيرتان بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية وكذلك وقفت مملكة سردينا (التي هي إيطاليا فيما بعد) بينما كانت الإمبراطورية الروسية تقف في مواجهة هؤلاء جميعاً، واشتركت دولتان (إيطاليا) عثمانيتان بجيوشهما المستقلة في هذه الحرب وهما مصر وتونس، وكان هذا نوعاً من التفكير الاستراتيجي للعثمانيين والمصريين والتونسيين على حد سواء، كما كان منبئاً عن صعود مشروعات عدة دول إسلامية

في وقت متزامن ، وإن كان البريطانيون والفرنسيون قد سارعوا قبل مضي عشرين عاما باحتلال تونس (١٨٨١) ومصر (١٨٨٢) لإجهاض مشروعى الدولتين الإسلاميتين القويتين البازغتين ، ومما يؤسف له أنهما نجحتا في هذا الإجهاض.

كيف أشعل القيصر نيقولا الأول حرب القرم

وعلى نحو ما نعرف في تاريخ الحروب فإن هناك "صانع ألعاب" كما في الكرة وكما في ضربات القلب ، وقد كان صانع الألعاب في حرب القرم هو القيصر الروسي الشرير نيقولا الأول (١٧٩٦ - ١٨٥٥) الذي لم يكن شابا وقت نشوب الحرب بل كان قد قارب الستين من عمره لكنه كان يتمتع بقدر كبير من التعصب الديني فضلا عن الغرور الذي تمكن منه بسبب وسامته المفرطة ، وقد رزقه الحظ بالزواج من الأميرة البروسية شارلوت (١٧٨٩ - ١٨٦٠) وقد تحولت إلى الأرثوذكسية بسبب زواجها منه، وهكذا كان مطمئنا الى نوع من التحالف الطبيعي (أو الإصهاري) بين روسيا و بروسيا وقد عاش نيقولا الأول في ظل شقيقه الأكبر الذي حكم روسيا ما بين ١٨٠٩ و ١٨٢٥ ثم ورث الحكم عند وفاة الشقيق الأول حيث تنازل شقيقه الثاني عن حقه في أن يخلف الشقيق الأول .

كان القيصر الروسي نيقولا الأول قد نجح في القضاء على انقلاب عسكري مكتمل الأركان وتمكن من السيطرة على روسيا بعد أن تعرض مبكراً لمشروع ثورة شعبية شارك فيها ٣ آلاف ضابط شاب مع المواطنين المتطلعين إلى الحرية، وهكذا فإنه بدأ طابع عهده الديكتاتوري منذ عامه الأول إن لم يكن منذ يومه الأول، وأحكم قبضته على بولندا في ١٨٣٠ وإن كان أعطى بعض الحرية لفنلندا ، ويذكر له في المجال الاستراتيجي الحقيقي أنه كان هو الذي بدأ السكك الحديدية في روسيا بين موسكو وسان بطرسبورج (١٨٥١).

ألف نيقولا الأول لنفسه نظرية تقوم دعائمها على توظيف الديانة الأرثوذكسية والقومية الروسية مع الأوتوقراطية كأركان ثلاثة لحكم ديكتاتوري قوي لم يسلم من نتائجه أديب عظيم مثل أديب روسيا الأول بوشكين ١٧٩٩ - ١٨٣٧ والشاعر الأوكراني شيفتشينكو ١٨١٤ - ١٨٦١ الذي تعرض للنفي إلى سيبيريا.

السبب الحقيقي لحرب القرم

انتهج نيقولا الأول سياسة متعصبة شبيهة بسياسة الملكة إيزابيلا تجاه المسلمين واليهود ، لكنه بدأ بالكاثوليك في أوكرانيا ولتوانيا وبيلاروسيا مستهدفاً أن يُجبرهم على التحول إلى الأرثوذكسية مما خلق حالة من التوتر بينه وبين الكاثوليك الأوربيين ، كذلك فقد شهد عصره أكثر درجات التعسف مع اليهود حتى إنه أجبرهم على الالتحاق بخدمة الجيش وكانت هذه الخدمة نوعاً من أنواع الاستعباد إذ كانت تستمر لمدة ٢٥ عاماً وكان يستهدف بهذا الاجراء إبعاداً لهم عن المجتمع اليهودي وهو ما أدى في النهاية إلى اعتناق كثير من اليهود للمسيحية.

كان من الطبيعي أن ينتقل صراع هذا القيصر الروسي مع الكاثوليك إلى القدس حيث كانت الدولة العثمانية قد جاملت الفرنسيين بإعطائهم بعض صلاحيات في القدس لكن نيقولا الأول لم يكن راغبا في استمرارها ، وكان هذا النزاع حول القدس نزاعاً تقليدياً كانت فرنسا ولا تزال توظفه بكثافة (بالرغم من كل دعاوى العلمانية) من أجل أي قدم تضعها في أية منطقة لنهب ثرواتها ، وكان هذا هو السبب الحقيقي لبدء حرب القرم التي لم تنته إلا بعد وفاة نيقولا الأول نفسه الذي توفي في مارس ١٨٥٥ حيث خلفه ابنه ألكسندر الثاني (١٨١٨ - ١٨٨١) والذي استمر قيصراً لروسيا ما بين مارس ١٨٥٥ وحتى اغتياله في ١٨٨١ بعد ٢٦ عاماً من الحكم.

هزيمة الروس ومفاوضات سيفاستوبول

لجأ ألكسندر الثاني إلى التفاوض بعد هزيمة سيفاستوبول وظهور ضعف الدولة الروسية في مواجهة القوى الستة الآخرين من العثمانيين والبريطانيين والفرنسيين والإيطاليين والمصريين والتونسيين ، ومع أن وقوف دولة واحدة في مواجهة ٦ جيوش مما يحسب لنقولا فإن الكراهية المعتادة من المؤرخين الأوربيين ومن تبعهم من المؤرخين العرب تجعلهم جميعاً لا ينظرون إلى نيقولا إلا نظرة استعلائية مع أنه من باب الانصاف حقق انتصارات في بداية هذه الحرب ، ولم يخسر كثيراً بنهايتها بل إن هذه الحرب كانت كما نرى سبباً في اضطراب موازنة الدولة العثمانية وفي اضطراب عهد نابليون الثالث (١٨٠٨ - ١٨٧٣) في فرنسا وهو الذي اضطر إلى ترك الحكم في سبتمبر ١٨٧٠ بعد أن نجح الجيش البروسي في حصار ميتر ،

والانتصار في معركة سيدان ، ثم سجن نابليون الثالث نفسه في ألمانيا ونقل إلى إنجلترا وبقي فيها حتى توفي بعد عملية جراحية في يناير ١٨٧٣.

مخطط الروس الذي أجهضه البريطانيون

تروي كتب التاريخ التي نشرها المنتصرون أن حرب القرم بدأت باجتماع بين القيصر نقولا الأول والسفير البريطاني في مدينة سان بطرسبورج قدم القيصر فيه عرضا روسيا باقتسام ممتلكات الدولة العثمانية (على نحو ما حدث فيما بعد في سايكس بيكو) لكن بريطانيا فضلت في ذلك الوقت (حسب ما هو مروى من التاريخ الذي شاركت بريطانيا نفسها في كتابته) أن توقع نقولا الأول في المصيدة على الرغم من انه لم يكن يتصور أن يقف المسيحيون ضده في حرب يقودها بنفسه.. وكان نقولا الأول يصدر في تصرفه عن حقد وغدر ذلك أن العثمانيين كانوا قد أكرموه و منحوه وضعاً متميزاً و هو العبور عبر المضائق التركية وهو ما لم تكن تسمح به الدولة العثمانية للفرنسيين ولا البريطانيون إلي البحر الأسود. وعلى طريقتهم البرجماتية المعروفة فإن الفرنسيين فضلوا إعلان المسارعة إلى المشاركة في الحرب مع البريطانيون والعثمانيين ليكون لهم من الفوز حظ ومن الغنائم نصيب.

من الجدير بالذكر أن حرب القرم كانت قد بدأت باحتلال رومانيا وأعلنت روسيا أن هذا إجراء ذاتي لكن هذا لم يكن كافياً لمنع هذه الحرب.

كيف بدأت الحرب وكيف انتهت

وهكذا بدأت الحرب بإعلان احتجاجات الروس على الامتيازات التي منحها السلطان عبد المجيد في ١٨٥٢ للكاثوليك التي كانت فرنسا حريصة دوماً على ان تعلن أنها تمثلهم، ومن ثم أصبحت الدعوى المناقضة التي يرفعها القيصر نقولا هي حقوق الأرثوذكس وأن تكون لهم حرية التصرف في مفتاح كنيسة المهد وما إلى هذا من الحقوق التاريخية للروم الأرثوذكس من دون إشراك الكاثوليك لكن بريطانيا (البروتستانتية) لم تتشأ أن تقبل بهذا النفوذ الروسي ولا المطالب الروسية. ومع التجاوب العثماني الذي أبداه السلطان مع مطالب الروس فإنهم بدأوا كالعادة يطالبون بمطالب إضافية من قبيل استقلال الجبل الأسود.

الباب الخامس

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

الفصل التاسع عشر

خطة احتكار العروش التي نفذتها الملكة الإسبانية إيزابيلا الأولى للتعصب ضد الإسلام واليهود

الزواج الكارثي

نعرف أن حقبة التعصب الاستثنائي ضد الإسلام واليهودية بدأت مع زواج الملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة (١٤٥١ - ١٥٠٤) المدفونة في غرناطة ، من زوجها الذي كان يصغرها بعام الملك فرناندو (١٤٥٢ - ١٥١٦) ملك أراجون المدفون أيضا في غرناطة . والذي عاش ١٢ عاما بعد زوجته .

وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتاباتنا أن اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون كان نموذجا مبكرا لما نعرفه الآن من الاتحادات التي لا تنوب فيه شخصية الدول المتحدة ، وإنما تبقى كل منها محتفظة بنظمها وبكيانها .

نعرف أيضا أنه في عهد هذين الزوجين اللذين نسب بدء تشجيع اكتشاف أمريكا إلى عصرهما (من باب المجاملة التي ترقى إلى درجة التزوير) انتهى وجود الحكم الإسلامي في إسبانيا (وإن لم ينته وجود الإسلام) بالاستيلاء على غرناطة التي دُفنا فيها تعبيراً عن اعتزاز الزوجين الملكين بانتصارهما فيها على أبي عبد الله الصغير ١٤٦٠-١٥٣٣ الذي سلمهما مفاتيح المدينة ، فيما صورته روايات الأوربيين على أنه موكب خزي وعار يليق بقصور همته ، على نحو ما قالت له والدته ، فيما نقله الأوربيون ، وهي رواية أوربية شائعة ينفوها المسلمون ، لكن التاريخ كما نعرف يكتبه المنتصرون .

وفي عهد هذين الملكين الزوجين تم إجبار المسلمين واليهود (على حد سواء) على اعتناق الكاثوليكية أو القتل أو الرحيل.

الفكرة الوحيدة التي استولت على الملكة إيزابيلا

لم يكن لإيزابيلا هذه الملكة المعروفة جيدا في التاريخ من الفكر إلا فكرة واحدة هي مُحاربة الإسلام بكل وسيلة ، والعمل على الخلاص من الوجود الإسلامي نهائيا، وهي التي أنشأت أبشع صور اللإنسانية الأفظع من الوحشية متمثلة في محاكم التفتيش ، وهي التي تسببت في طرد ثلاثة ملايين مسلم من موطنهم بعد أن استولت على ممالك المسلمين ، مملكة بعد الأخرى ، إلى أن تمكّنت مع زوجها من الاستيلاء على غرناطة ١٤٩٢. ومن الظلم أن يقول أيُّ مؤرِّخ (حتى لو كان معاديا للإسلام) سقوط غرناطة لأن مدينة غرناطة وجه الحضارة الإسلامية لم تسقط حتى الآن على الرغم من استيلاء هذين الملكين المُتعصِّبين عليها منذ أكثر من خمسة قرون..

استثمار زيجات أولادها الخمسة

على نحو ما استعانت إيزابيلا على النفوذ والغطرسة والتعصُّب بزواجها من ملك أراجون الذي كان يصغُرُها بعام (والذي تزوج من غيرها بعد وفاتها) ، فإن إيزابيلا كانت من أجل احتكار العروش الأوروبية قد رُتبت زيجات ابنها وبناتها الأربع من أجل المستقبل المتعصب الذي كانت تتطلع إليه .

مصاهرة النمسا للمرة الأولى

زوجت إيزابيلا الأولى ابنها الأول والوحيد خوان من مارجريت من عائلة هابسبورج النمساوية لكنه لم يعيش.

مصاهرة البرتغال ثلاث مرات

زوجت إيزابيلا الأولى (هي وأسرتهما بالطبع) ثلاثا من نسلها الأنثوي لاثنين ممن كان يتوقع وصول عرش البرتغال إليهما فبدأت بأن زوجت كُبرى بناتها إيزابيلا الابنة من ألفونس ولي عهد البرتغال [وحتى لا تختلط الأمور على القارئ فإننا ننبيه إلى أن اللقب الذي كان يسمى به ولي عهد البرتغال هو لقب " أمير البرتغال "] وهو ما يعني وجود ملك للبرتغال و أمير للبرتغال في الوقت ذاته ، و أنه ليس كل من وصل إلى لقب أمير البرتغال كان ملكها فقد يموت وهو ولي للعهد كما في حالة ألفونس الذي كان أميرا للبرتغال لكنه توفي قبل أن يصبح ملكا للبرتغال وقبل أن تتجب منه زوجته إيزابيلا ابنة الملكين إيزابيلا و فرناندو، فزوجتها أمها إيزابيلا

(عدوة المسلمين واليهود) ممن خلفه ، و هو مانويل الأول ملك البرتغال ١٤٩٥- ١٥٢١ فانجب منها ابنا وليا للعهد لكن ابنتها ماتت ومات ابنها ولي العهد أيضا وهكذا فقدت فرصة ثانية . فما كان منها إلا أن زوجت ثالث بناتها ماريًا من مانويل الأول ملك البرتغال فحلت محل شقيقتها وأنجبت منه في ١٩٠٢ جوان الثالث الذي أصبح ملك البرتغال ١٥٢١- ١٥٥٧ كما أنجبت منه في ١٩١٢ شقيقه هنريك الذي أصبح ملك البرتغال ١٥٧٨- ١٥٨٠ ولما ماتت هذه الزوجة الثانية لملك البرتغال مانويل (بعد شقيقتها) خلفتها اليونورا بنت أختها الثانية كزوجة لمانويل وكملكة قرينة للبرتغال لمدة ثلاثة أعوام .

عودة الى مصاهرة النمسا

فيما بين زواج ابنتيها الأولى و الثالثة من العرش البرتغالي فإن إيزابيلا الأولى كانت قد زوجت ابنتها الثانية خوانا (المجنونة) من ابن ملك النمسا (الإمبراطور الروماني المقدس) وهي التي أنجبت من أصبح دون ترتيب ولا توقع وريثا لأجداده الأربعة ، وهو الإمبراطور كارلوس الخامس الذي هو أكبر أقطاب السياسة الأوروبية في عصره بما آل اليه من الممتلكات التي كانت دولا و إمبراطوريات ...

مصاهرة إنجلترا

زوجت إيزابيلا الأولى رابع بناتها وصغراهن وهي المسماة كاترين ١٤٨٥- ١٥٣٦ من الأمير آرثر الأخ الأكبر للملك هنري الثامن ملك إنجلترا لكن الأمير توفي بعد ٥ شهور فقط من الزواج فزوجتها أمها لأخيه هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧) ملك إنجلترا و إيرلندا ١٥٠٩- ١٥٤٧ وهو القطب المعاصر لسليمان القانوني و لوريثها وسببها كارلوس ، و لسببها الآخر جون الثالث ، ولفرنسوا الأول ملك فرنسا المتحالف مع سليمان القانوني في وجه هذه العصبية ، وأنجبت كاترين من زوجها هنري الثامن خمسة أطفال توفوا كلهم أثناء الولادة ما عدا ماري ١٥١٦- ١٥٥٨ التي أصبحت فيما بعد ماري الأولى ملكة إنجلترا ١٥٥٣ - ١٥٥٨ والتي لم تكن تقل تعصبا عن جدتها حتى إنها أعادت تحويل إنجلترا بالأمر من البروتستانتية إلى الكاثوليكية قبل أن تخلفها أختها غير الشقيقة إيزابيث الأولى وتحول إنجلترا مرة أخرى إلى البروتستانتية منذ ذلك الحين وحتى الآن.

الفصل العشرون

كيف انتصر سليمان القانوني على

عصبة الملوك الكاثوليك المتعصبين

إذا اردنا أن ندرك القيمة الحقيقية للدولة العثمانية في عصر صعودها فإن يوسعنا بمنهج العلم أن نتأمل في بانوراما الملوك الكاثوليك المنتمين بالأصل أو بالنسب للملكة إيزابيلا (المصنفة في مكانة أكبر أعداء الإسلام) الذين وجد سليمان القانوني في عصرهم .

مكانة سليمان القانوني بين الأقطاب المتعاصرين

باختصار شديد كان هؤلاء هم أقطاب أوروبا المتعاصرون الذين تعاقبوا في توليهم الحكم في بلادهم قبيل أن يصل سليمان القانوني إلى منصب الخلافة :

مانويل الأول

منذ ١٤٩٥ كان مانويل الأول ١٤٦٩-١٥٢١ ملكا للبرتغال حتى خلفه ابنه في ١٥٢١ [ومانويل هو زوج ابنتين من بنات الملكة إيزابيلا وحفيدة من حفيداتها كما أنه حمو حفيدها الوريث].

هنري الثامن

■ في ١٥٠٩ أصبح هنري الثامن ١٤٩١-١٥٤٧ ملكا لإنجلترا وإيرلندا حتى وفاته [وهنري هو زوج ابنة من بنات الملكة إيزابيلا بعد أخيه الذي مات وهو ولي للعهد].

كريستيان الثاني

■ في ١٥١٣ أصبح كريستيان الثاني ١٤٨١-١٥٥٩ ملكا للدنمرك حتى وفاته [وكريستيان هو زوج حفيدة من حفيدات الملكة إيزابيلا].

كارلوس

- في ١٥١٦ أصبح كارلوس ١٥٠٠ - ١٥٥٨ إمبراطورا رومانيا وحتى ١٥٥٦ حيث دخل الدير معتزلا الحياة قبيل وفاته [وكارلوس هو حفيد الملكة إيزابيلا الذي آل إليه ملكها مع ملك أجداده الآخرين كما أنه زوج لابنة خالته أي لحفيدة من حفيدات الملكة إيزابيلا].

لويس الثاني

- في ١٥١٦ أصبح لويس الثاني ١٥٠٦ - ١٥٢٦ ملكا للمجر حتى وفاته [ولويس هو زوج حفيدة من حفيدات الملكة إيزابيلا].

فرنسوا الأول

- في ١٥٢٠ أصبح فرنسوا الأول ١٥٩٤ - ١٥٤٧ ملكا لفرنسا حتى وفاته [وفرنسوا أيضا زوج حفيدة من حفيدات الملكة إيزابيلا].

جون الثالث

- في ١٥٢١ أصبح جون الثالث ١٥٠٢ - ١٥٥٧ ملكا للبرتغال حتى وفاته [وجون هو حفيد الملكة إيزابيلا وهو زوج حفيدة من حفيداتها].

ثم طلعت شمس سليمان القانوني

- و في ١٥٢٦ بزغ نجم الخليفة سليمان العظيم أو سليمان القانوني ١٥٩٤ - ١٥٦٦ الذي حكم حتى وفاته وهو يجاهد في سبيل الله .

مرجعية الإمبراطور الروماني المقدس كارلوس

من حيث الأهمية فإن الإمبراطور الروماني المقدس كارلوس كان الأكثر نفوذا ومساحة و عتادا ، و سنعيد التحدث عنه في الفقرة التالية باعتباره مركز النسب بالآخرين لنسهل على القارئ تصور قوة وعلاقات النسب التي ربطت هؤلاء العصابة في مواجهة السلطان سليمان القانوني والدولة العثمانية ، ولم يتحالف معه منهم إلا فرنسوا الأول ملك فرنسا . فمانويل ملك البرتغال (١٤٩٥ - ١٥٢١) هو حموه وهو زوج خالته إيزابيلا وماريا كما أنه زوج شقيقته الأولى إليونورا، و هنري الثامن ملك إنجلترا هو زوج خالته كاثرين ، و كريستيان الثاني ملك الدنمرك هو زوج

شقيقته الثانية إيزابيلا، و لويس الثاني ملك المجر هو زوج شقيقته الثالثة ماري، و فرنسوا الأول ملك فرنسا هو الزوج الثاني لشقيقته الأولى إليونورا، و جون الثالث ملك البرتغال هو زوج شقيقته الرابعة كاترينا، و هو شقيق زوجته ، وهو ابن زوج أخته إليونورا ، وابن زوج خالتيه إيزابيلا وماريا. وماري الأولى ملكة إنجلترا هي ابنة خالته ، و فرديناند الأول (١٥٠٣ - ١٥٦٤) هو شقيقه الذي خلف في بعض ملكه ، و فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) هو ابنه الذي خلفه وخلف شقيقه .

الامتداد الجغرافي الواسع للإمبراطورية الرومانية

كان الإمبراطور كارلوس ١٩٠٠ - ١٥٥٨ الذي تحالف في مواجهته الخليفة سليمان القانوني و الملك فرانسوا الأول (وكلاهما من مواليد ١٤٩٤) قد كوّن مملكته الواسعة بالميراث عن الأب والأم والجديتين والجدين ، وسوف نستعرضُ هذا التكوين المعقد للإمبراطورية الرومانية وعلاقته بالإرث بطريقة سلسلة و مُبسّطة تكفل فهم الصورة الحضارية التي كان على سليمان القانوني وفرنسوا الأول أن يتصديا لها، وقد نجحا في مواجهتها لمصلحة تاريخ الإنسانية حتى لو لم يفهم هذا كثير من أبناء الإسلام وأبناء المسيحية على حد سواء.

قصة فيليب الأول ملك قشتالة

كان والد كارلوس هو فيليب الأول ملك قشتالة (١٤٧٨ - ١٥٠٦) الذي عاش ٢٨ سنة فقط قبل أن يموت بالتهاب رئوي حين كان ابنه كارلوس في السادسة من عمره ، وكان قد أنجب ابنه هذا وهو في الثانية والعشرين من عمره (١٥٠٠) كما أنجب بعد ثلاث سنوات ابنه فرديناند الأول (١٥٠٣ - ١٥٦٤) الذي خلف شقيقه في بعض ملكه حوالي ٨ سنوات حتى توفي في ١٥٦٤ أي أن الأخوين عاصرا سليمان القانوني وماتا قبله . و في ١٤٩٦ (أي بعد مولد سليمان القانوني وفرنسوا الأول بسنتين) تزوج والد كارلوس من والدته.. كانت الوالدة أعظم مُلكا من الوالد فهي نفسها ابنة الملكين المُتعصّبين المشهورين بسياساتهما المُعادية لكل حقوق الإنسان ولكل أصول الحضارة.. كانت هذه الوالدة هي خوانا (المعروفة في تاريخ الغربيين بخوانا المجنونة) ابنة الملكين القطبيين فرناندو ملك أراجون المدفون في غرناطة وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة المدفونة في غرناطة أيضا .

الفصل الواحد والعشرون

كيف أرهب العثمانيون الملك فيليب الثاني

الذي تزوج ابنة شقيقته وسميت الفلبين على اسمه؟

ابن الامبراطور كارلوس

هذا الملك هو الملك الإسباني فيليب الثاني الذي لا يزال يعد من أشهر ملوك العصر الوسيط ، و الذي آلت إليه أكبر إمبراطورية في عصره ، فهو ابن الامبراطور كارلوس الخامس الذي كان بمثابة أقوى وأبرز الملوك المتعصبين الذين واجهتهم الدولة العثمانية في عهد صعودها الواصل .

توسع مؤقت في امبراطورية أبيه

وقد وزاد فيليب في مساحة الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه ، في وقت ما ، بزواجه من ملكة بريطانيا .

التعصب و الاختلال ودور الحاشية

كان الملك فيليب الثاني معروفا بالتعصب الديني الشديد والمتوارث كما كان يتمتع أيضا باختلال عقلي موروث مع ملامح لا يمكن إنكارها ، لكن هذا الاختلال العقلي كان مستورا بحكم الستار الحديدي حول الملوك في عصر ندرة المعلومات ، وبفضل قوة الدور التنفيذي والتوجيهي المكمل الذي كانت الحاشية تؤديه باتصال .

حرصه على النأي بنفسه عن حرب المسلمين

لكن فيليب الثاني (ونظامه) على الرغم من تعصبه المرضي الشهير و الموروث كان حريصا كل الحرص على ألا ينخرط في حروب مع المسلمين ، صحيح أنه لم يعلن هذا التجنب صراحة ، لكن التاريخ يقول بأنه كان على الدوام يتفادى مثل هذه المواجهة المباشرة ، حتى إنه نصح ابن شقيقته الملك البرتغالي سبستياو ١٥٥٤- ١٥٧٨ بعدم دخول الحرب التي شهدت نهايته المبكرة ونهاية جيشه ودولته على يد الأسطول العثماني في معركة الملوك الثلاثة الشهيرة ١٥٧٨ .

مكانة فيليب الثاني في التاريخ

نعرف أن فيليب الثاني عاش واحدا وسبعين عاما (١٥٢٧ - ١٥٩٨) وكان عمره من الأعمار الكبيرة في زمنه ، حكم إسبانيا لأكثر من أربعين عاما ما بين ١٥٥٦ - ١٥٩٨ أدرك فيها السنوات العشر الأخيرة من حكم سليمان القانوني و قد عاش يرنو إلى ما يمكن له أن يستفيد به من نظام العثمانيين الاجتماعي ، من دون أن يجرؤ على تحدي التعاليم الكاثوليكية بصراحة و وضوح ، على نحو ما فعل الملك الإنجليزي هنري الثامن الذي حكم ما بين ١٥٠٩ و ١٥٤٧ أو ابنته الثانية الملكة البروتستانتية المؤثرة إليزابيث الأولى ١٥٣٣ - ١٦٠٣ التي حكمت ما بين ١٥٥٨ - ١٦٠٣ (وهي التي كانت معاصرة لفيليب الثاني ، زوج أختها الكبرى وعاشت عمرا طويلا مثله).

تجربته في تكرار الزواج

حاول فيليب الثاني أن يقتدى بتجربة الملك البريطاني هنري الثامن في تكرار الزواج تقليدا للمسلمين ، فتزوج أربع مرات، وذلك على الرغم من أنه عاش عقديه الأخيرين بلا زواج .

هل كرر الاعتداء على حق ابنه؟

الغريب في أمر زيجات هذا الملك أمران ، نبدأ بالأمر الثاني الأهلون وهو أنه كرر الزواج ممن كن مرشحات للزواج من ابنه ، وهذا ربما يكون "مبلوعا" بصعوبة ، لكن الأمر الأول الذي يصعب بلعه ، حتى الآن ، أنه استحل لنفسه أن يتزوج ابنة أخته وهو ما لم تكن الكاثوليكية تجيزه حتى إن أجازته اليهودية التي كان يعاديه كما يعادي الإسلام .

وتذهب بعض الكتابات التاريخية إلى أنه في الحالتين التي تزوج فيهما من كانتا مرشحتين للزواج من ابنه ، كان هو المعتدي على حق ابنه ، وليس هذا بمستغرب على تاريخه مع هذا الابن الذي صورته الكتابات الملكية مختلا عقليا يستحق نهاية مبكرة على ما سنروي .

نتأمل الآن في زيجات فيليب ونتأمل من خلالها تاريخه وتاريخ الصراع السياسي في أوروبا وهو صراع ذو علاقة وثيقة بالاستقطابات التي واجهها العثمانيون .

الزيجة الأولى لفيليب تؤكد عرقه البرتغالي

تزوج فيليب الثاني من ماريا مانويلا أميرة البرتغال (١٥٢٧ - ١٥٤٥) وهي ابنة خاله وابنة عمته في الوقت ذاته (فقد كان خاله على نحو ما هو موجود أيضا في مجتمعاتنا متزوجا من عمته) كان خاله هو جوان الثالث (١٥٠٢-١٥٥٧) القطب المهم في الحياة الأوروبية في ذلك الوقت و ملك البرتغال (١٥٢١ - ١٥٥٧) وقد دام زواجهما لأقل من عامين (نوفمبر ١٥٤٣ - يوليو ١٥٤٥) لكنها توفيت قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، و ذلك بعد ولادتها لابنه البكر بأيام معدودة ، وقد أسمى ابنه منها كارلوس ، و عاش هذا الابن حتى توفي ١٥٦٨ و تصفه كتاباتهم بأنه كان مختلا عقليا ، لكن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أنه قتل بالسم بناء على أوامر والده الملك فيليب الذي كان قد وضعه في الحبس حتى توفي .

الزيجة الثانية لفيليب تخلق له نسبا بالإنجليز

تزوج فيليب الثاني من الملكة ماري الأولى ١٥١٦ - ١٥٥٨ ملكة إنجلترا) وهي ابنة خالة والده) وكانت تكبره بأحد عشر عاما ، بينما كانت تصغر والده بعشر سنوات فقط ، فأصبح بهذه الزيجة ملك إنجلترا القرنين ما بين ١٥٥٤ و ١٥٥٨ .. وكانت ماري كاثوليكية مُتعضبة مثل أمها كاترين أراجون (خاله أبيه كارلوس) حتى إنها هي التي أعادت تحويل مذهب الأمة الإنجليزية إلى الكاثوليكية، بعد أن كان والدها قد حول إنجلترا إلى البروتستانتية ، وكانت ماري تضطهد البروتستانت و تقتلهم على الهوية ، إلى درجة أنها عُرفت باسم السفّاحة ماري، وكانت تُحاول أن تمنع أختها غير الشقيقة إليزابيث الأولى من أن ترث الحكم من بعدها، حتى إنها كانت قد اعتقلتها في أعقاب ثورة عليها لم تُطح بها ، وتصبح هذه الأخت هي الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣) التي حكمت إنجلترا ٤٥ عاما ، و أسست ما عرف باسم الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية : جوهر الشكل الذي عليه سارت بريطانيا منذ ذلك الحين.

وكان الفضل في هذا الإنجاز الإنجليزي أن مناخ التعصب المقيت كان قد انكسر بفضل ما تولد من روح حضارية مناقضة لسيادة فكرة التعصب في كل شيء، وهي الروح التي تولدت و نتجت عن تحالف سليمان القانوني ١٤٩٤-١٥٦٦ وفرنسوا الأول ١٤٩٤-١٥٤٧ ، وها هو ابن كارلوس الذي زاد في الرُقعة التي ورثها عن

أبيه كارلوس بأن أصبح ملك إنجلترا القرنين لا يمكث متمتعا بهذه الصيغة إلا سنوات معدودات ما بين ١٥٥٤ و ١٥٥٨ ، حيث خرجت إنجلترا نهائيا ، وحتى الآن من ربة التعصب الكاثوليكي.

الزيجة الثالثة لفيليب تخلق له نسبا بالفرنسيين

كانت زوجة فيليب الثاني الثالثة [الفرنسية] أصغر من زوجته الثانية [الإنجليزية] [بثلاثين عاما وهي إيزابيث (١٥٤٥ - ١٥٦٨) الابنة الكبرى لهنري الثاني ملك فرنسا (وهنا نذكر بفارق مهم وهو أن حماه الثاني هنري الثامن الإنجليزي بينما أن حماه الثالث هو هنري الثاني الفرنسي) ودام زواجه لها ثمانية أعوام منذ ١٥٦٠ وحتى وفاتها في ١٥٦٨ ، وكانت هذه الزوجة التي هي الملكة القريفة إيزابيث شبه مخطوبة لابنه البكر كارلوس في ١٥٥٩ ، قبل أن يؤثر الملك فيليب بها نفسه ، وهي حفيدة فرنسوا الأول [الذي هو غريم والده و زوج عمته] وشقيقة الملوك الفرنسيين الثلاثة المتعاقبين : فرنسوا الثاني وهنري الثالث وشارل التاسع ، كما أنها شقيقة زوجة الملك الفرنسي الذي أعقب أشقائها الثلاثة في حكم فرنسا ، وهو الملك هنري الرابع ملك فرنسا وأول ملوك أسرة الباربون . وقد انجب فيليب من زوجته الثالثة هذه ابنتين عاشتا حتى تزوجتا من زوجين ذوي نفوذ هما أرشيدوق النمسا و دوق سافوي . وبهذه الذرية تحققت الاندماج بين العرشين الفرنسي والأسباني .

الزيجة الرابعة من ابنة اخته النمساوية

تزوج الملك فيليب للمرة الرابعة من أنا ١٥٤٩ - ١٥٨٠ ابنة ابن عمه ، وهي نفسها ابنة أخته الشقيقة ماريا النمساوية ، أما ابن عمه فهو الإمبراطور ماكسميليان الثاني ١٥٢٧ - ١٥٧٦ (ابن عمه الشقيق فرديناند) وقد دام زواجه لها عشر سنوات من ١٥٧٠ وحتى ١٥٨٠ ، ومنها أنجب ابنه وخليفته فيليب الثالث (١٥٧٨ - ١٦٢١) لا أريد أن أزيد من بلبلة القارئ ، حين أذكر له أن بعض الكتابات التاريخية تزعم أن هذه الزوجة لم تكن في الواقع ابنة شقيقته ، وإنما كانت في حقيقة الأمر (التي كان رجال الدين يعرفونها و صارحوه بها) أخته من أبيه ، وإن سجلت منسوبة إلى شقيقته ، وزوجها ، والعياذ بالله .

ثم عاش عقدين بلا زواج

ثم عاش فيليب الثاني العقدين الأخيرين من حياته بلا زواج بعد أن تزوج البرتغالية ثم الإنجليزية ثم الفرنسية ثم النمساوية ولم يتزوج إسبانية [في الظاهر] من بين زوجاته الأربع . أما في الحقيقة فإن أمهات زوجاته الأولى والثانية والرابعة إسبانيات ، بل إنهن من عائلته الصغيرة جدا فأم زوجته الأولى هي عمته ، وأم زوجته الرابعة هي شقيقته والعياذ بالله ، وأم زوجته الثانية هي خالة كل من والده والدته معا .

الفصل الثاني والعشرون

نهاية أول دولة للاستعمار المتعصب

بفضل العثمانيين في معركة الملوك الثلاثة

طبيعة حروب الثورات المضادة

منذ انفتحت آفاق حرية التعبير مع ثورات الربيع العربي والتصاعد المستمر في تأثير مواقع الاتصال الاجتماعي ، أصبح المجال رحبا للحديث بكثير من التصويب للحقائق التاريخية التي أخفاها عن عمد الأسلوب الغربي في كتابة التاريخ الإسلامي من منظورات اختزالية.

وعلى سبيل المثال فقد أعلننا مبكرا جدا حين كان إعلاننا نفسه مثار دهشة وتعجب و ذهول (من قبل أن تمضي السنوات و تتكرر المأساة بحذافيرها) أن الحروب الصليبية لم تكن بين مسلمين ومسيحيين وإنما كانت بين جبهتين، كان في كل منهما مسلمون، وفي كل منهما مسيحيون حتى مع غلبة العنصر الإسلامي أو المسيحي في هذه الجبهة أو تلك . هذه الحقيقة تُمثل في نظري أهم درس في الحروب الصليبية، ومن حسن حظنا أن التاريخ لم يبخل علينا بإقراره وتكراره لهذه الحقيقة فإذا الثورات المضادة تقوم على يد حُكام مسلمين لم يكن أحد يتصور أن يُمعنوا إلى هذا الحد في مُعاداة الإسلام أو ما يُسمونه الإسلام السياسي.

إرهاصات ما يسمى بالثورة المضادة

وفي واقع الأمر ، فإن كل ما نشهده الآن من حركات الثورة المضادة كانت له إرهاصات سابقة طيلة العصور الوسطى التي استعانت فيها كثير من الدول الإسلامية الصغيرة على أشقائها المسلمين بدول غير مسلمة كان بعضها ممعنا في التعصب ضد الإسلام، وهكذا كانت هذه الحروب تنتهي بإيذاء للمسلمين من ناحية ، وللمسيحيين من ناحية أخرى من دون أن يكون هناك انتصار لمعنى من معاني العقيدة سواء الإسلامية أو المسيحية.

الأمثلة على هذا كثيرة ، لكن معركة الملوك الثلاثة كانت نموذجاً صارخاً لهذه التجربة الأليمة التي تركت آثاراً بعيدة المدى وعبرت عن خصومات قصيرة النظر وعن قرارات في منتهى الغباء اتخذها ملوك كانوا أصغر بكثير من حجم المهام الملقاة على عاتقهم، يستوي في هذا مسلمون ومسيحيون تورطوا هذه المعركة بدوافع تفتقد إلى الحنكة والذكاء ومن ثم كانت نتيجتهم كارثية .

الانتصار العثماني الذي لا يلقى عليه الضوء الكافي

لكن الانتصار الحقيقي في هذه المعركة تحقق للدولة العثمانية التي كان كيانها في ذلك الوقت يُمثّل امتداداً للموجة الصاعدة التي بدأها سليمان القانوني (١٤٩٤ - ١٥٦٦) بتحالفه الذكي مع فرانسوا الأول ملك فرنسا (١٤٩٤ - ١٥٤٧) في مواجهة التعصب الكاثوليكي الذي كاد أن يعود بأوروبا والعالم القديم إلى العصور الحجرية أو إلى عصور ما قبل التاريخ ، ويكفي في هذا الصدد أنّ إيزابيلا (الابنة) ابنة ملكة إسبانيا الشهيرة إيزابيلا الأم اشترطت لقبول زواجها من ملك البرتغال أن يعدها بطرد المواطنين اليهود من البرتغال على نحو ما طرد أسلافه المواطنين المسلمين وذلك ليكون الأمر في البرتغال شبيهاً وتكراراً لما فعلته أمّها مع المسلمين واليهود في إسبانيا من غدر و طرد واستئصال ومحاكم تفتيش مما لا يزال يندى له جبين الإنسانية حتى اليوم.

قصة معركة الملوك الثلاثة

بدأت مقدمات هذه المعركة على يد الإمبراطور سيبياستياو ملك البرتغال (١٥٥٤ - ١٥٧٨) الذي كان ورث جدّه جوان الثالث (١٥٠٢ - ١٥٥٧) في ملك البرتغال ،

كما كان أيضا حفيدا لكارلوس الخامس الإمبراطور الروماني المقدّس (١٥٠٠ - ١٥٥٨) أعظم ملوك أوروبا في مساحة الإمبراطورية التي حكمها.. كان هذان الجدّان كارلوس الخامس وجوان الثالث (وهما في الأصل أبناء خالة أيضا) قد تبادلوا المُصاهرة فتزوج كل منهما من أخت الآخر ، وذلك تطبيقا لسياسة إيزابيلا الأولى في خلق هذه الإمبراطورية.

كيف أصبح سيباستياو ملكا في الثالثة من عمره

كان والد سيباستياو وريثا للعرش البرتغالي ، لكنه توفي قبل أن يولد ابنه بأسبوعين، ثم توفي الملك نفسه في ١٥٥٧ حين كان حفيده في الثالثة من عمره ، و هكذا أصبح سيباستياو ملكا للبرتغال منذ كان في الثالثة وحتى توفي وهو في الرابعة والعشرين غرقا في معركة الملوك الثلاثة.

كان الإفراط في تنشئة سيباستياو على مقومات التعصّب الديني سببا في تدمير حياته، وقد وصلت قسوة طموح أمه لحماية مُلك عائلتها أن تترك سيباستياو في البرتغال وهو لا يزال في الثالثة من عمره فلم تره أبدا بعد هذا ، فقد سافرت إلى إسبانيا لتتولى تأمين إمبراطورية أبيها كارلوس الخامس الذي تنازل عن العرش في ١٥٥٦ ليدخل الدير ، وظلّت مشغولة أيضا بالوصاية على العرش في عهد شقيقها فيليب الذي ورث أباه.

وهكذا ظلّت هذه الأم في إسبانيا حتى وفاتها في ١٥٧٣ ، أما سيباستياو فتنقّل من تعصّب إلى تعصّب ووصل في بعض الأحيان إلى أنه كان يحمل صورة توما الإكويني على حزام في خصره، على نحو ما هو مشهور عن بعض أهلنا في الوجه القبلي في مصر (وأمثالهم) من احتفاظهم بتمايمهم التي يعتقدون في أنهم ينالون بها الحماية والبركة.

انشغل بالتعصب عن الزواج

تباطأ هذا الملك الشاب المشغول بالتعصب أن يسير في طريق الزواج من المرشحات له :

- فتباطأ في الزواج من ابنة الملك هنري الثاني ملك فرنسا التي تزوجت ممن أصبح الملك هنري الرابع ملك فرنسا .

- وتباطأ في الزواج من ابنة خالته ماريا ابنة الإمبراطور ماكسمليان الثاني التي تزوجها الملك شارل التاسع ملك فرنسا.
- وتباطأ في الزواج من إيزابيلا ابنة خاله الذي هو فيليب الثاني ملك أسبانيا التي تزوجها ألبرت السابع أرشيدوق النمسا ..

لكنه بحكم شُرور التعصب اعترته نشوة السعادة حين لجأ إليه بعض رجال الدولة السعدية المسلمة لينصُرهم على بعضهم البعض ، وقد زَيّن له من استعانوا به أنهم يُساعدونه على حرب إبادة للمسلمين الذين يُريدون إعادة الأندلس.

استعانة أبو مروان بالدولة العثمانية

وفي مقابل استعانة المتوكل بالإمبراطور سيياستياو على حرب أعمامه و أبناء دينه ، فقد استعانت عمه عبد الملك سلطان المغرب المُلقب بأبو مروان بالدولة العثمانية وكان قد دخل المغرب بقواته ١٥٧٦ وانتصر في معركة قُرب فاس ، بينما فرَّ خصمه المتوكل من المعركة .

ولّى عبد الملك علي فاس أخاه أحمد ثم ضمّ مراكش ولاحقت جيوشه المتوكل الذي استصرخ بملك البرتغال بعد أن رفض ملك اسبانيا مبدأ نُصرته وإن زوده بالقوات والأسلحة ، وحرّض المتوكل سيياستياو على نصرته على عمّيه عبد الملك وأحمد مُقابل أن يتنازل للبرتغال عن جميع شواطئ المغرب ، فاقتنع وجّهز الجيوش تحت شعار أنها حملة صليبية جديدة.

لم يستجب لتحذير خاله

وعلى الرغم من أن خاله ملك أسبانيا حذّره من النتيجة ، فإنه زوّده بالسُفن وبعشرين ألفاً من الجنود ، بالإضافة إلى من جنّدهم سيياستياو من البرتغال وكانوا اثني عشر ألفاً ، وجامله البابا بأربعة آلاف، كما أمدّه الإيطاليون بثلاثة آلاف، والألمان بثلاثة آلاف.

وعلى الرغم من هذا كله فقد انتصر السعديون في هذه المعركة الفاصلة بمُساعدة العثمانيين.

و بعيدا عن وصف سير المعركة وتفصيلاتها ، فإنها قد أسفرت عن موت ثلاثة ملوك كانوا هم : سيياستياو، والمتوكل الذي حرّضه، وعبد الملك أحد المُحرّض

عليهما ، وقد كان مريضا جدا قبل المعركة لكنه أصر على حضورها ، وقد انتصر جنوده السعديون وخلفه أخوه أحمد الذي تسمّى بأحمد المنصور ، وتولى عرش المملكة السعدية باسم سلطان المغرب منذ ذلك اليوم في ١٥٧٨ ، حيث بويع في ساحة معركة وادي المخازن (أو القصر الكبير) وحتى وفاته ١٦٠٣ وكان عهده أزهى عهود الدولة السعدية في الثقافة والحضارة والعلم والقوة.

نهاية البرتغال المتعصبة

أما دولة البرتغال المتعصبة ، فقد انتهت تماما في تلك المعركة ، ذلك أنها فقدت جيشها وأركان دولتها وملكها الذي لم يكن له وريث فاستدعوا عمّه من الرهينة ليكون ملكا ، لكن فيليب الثاني خال سيباستياو الذي كان ملكا لإسبانيا رأى أن الأمر لن يستقيم إلا بأن تستولي إسبانيا على البرتغال وهو ما فعله بنفسه بعد أقل من عامين في ١٥٨٠.

و صحيح أن ملك إسبانيا لم يكن أقل عداء للإسلام والمسلمين واليهود من ابن اخته ملك البرتغال الذي مات شابا ، لكن الأمور تغيرت في اتجاه بدأ يُدرك أن التعصّب الكاثوليكي لا يُمكن أن يستمر على هذا النمط الذي رسمته إيزابيلا الأولى صاحبة محاكم التفتيش، وذريتها من بعدها.

لكن الطريف في أمر الانهزام الفكري في هذه المعركة هو أن البرتغاليين استعاروا من طائفة من طوائف المسلمين فكرة الإمام الغائب، وطبقوها حرفيا على سيباستياو فقالوا إنه لم يمُت، وإنما غاب، وإنه سيعود، وحتى الآن تتعرض البرتغال لمغامرات شيقة يقوم بها من توحى إليهم نفوسهم أن يزعم أحدهم أنه سيباستياو وأنه سيملاً الأرض عدلا.

أما الخليفة العثماني الذي وقعت في عهده معركة الملوك الثلاثة ، والذي جاءت قواته من الشرق فهو السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) وهو حفيد السلطان سليمان القانوني الذي تعاصر مع جدي سيباستياو : الإسباني كارلوس الخامس والبرتغالي جوان الثالث.

الفصل الثالث والعشرون

الإمام الغائب أو المهدي المنتظر البرتغالي

كان اللجوء البرتغالي الكاثوليكي إلى فكرة شبيهة بفكرة المهدي المنتظر أو فكرة الإمام الغائب حلاً عبقرياً وإجبارياً في الوقت نفسه للهزيمة المروعة التي تلقاها ملك البرتغال سيباستياو ، حين انهزم أمام جيوش العثمانيين في معركة الملوك الثلاثة ١٥٧٨ ، وكانت من أفسى الهزائم وأدحها في التاريخ الأوروبي الوسيط، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن الملوك الأوربيين لم يبخلوا عليه بالجنود ولا العتاد ولا السفن ، مع أن بعضهم لم يكن موافقاً له على هذه المخاطرة بدخول حرب في مواجهة الجيوش والأساطيل العثمانية، فلما جاءت الهزيمة الفادحة في ساعات ، كان لا بد من مُعالجة ولو وهمية للروح المعنوية للشعب الذي فقد ملكه وجيشه وأسطوله، وهنا لجأ بعض قساوسة الكاثوليك إلى فكرة أن سيباستياو لم يمُت، وأنه سيعود لينتقم، وليحكم العالم ذات يوم.

تجليات الفكرة

وهكذا عاشت الفكرة من جيل إلى جيل وظهرت تجلياتها في بلاد البرتغال على صعيدين كما هو الحال في مثل هذه الفكرة.

- التجلي الأول: هو التريث والانتظار وما يستتبعه من أدبيات وتعاويز وأدعية، ومبشرات ودلائل.. الخ.
- التجلي الثاني: هو أن يظهر من حين لآخر من يزعم أنه هو الإمام الغائب أو المهدي المنتظر أو سيباستياو البرتغالي ، ويُطالب بحقوقه أو يؤدي المهمة على نحو ما يتصورها و يرسم معالمها من الأسطورة والخيال والثقافة والواقع.
- وبالطبع فإن هذا التجلي الثاني للفكرة يستتبع أن يكون للمدعي أتباع، ومقتنعون، ومؤسسة ولو مؤقتة تؤدي حقوق التطلعات والأمان حتى لو كانت سُجهض بعد حين.

مبررات فكرة المهدي المنتظر البرتغالي

ومن الإنصاف لعقلنا أن نقول أن هذه الفكرة كان لها ما يُبررُها في ذلك العصر الذي نشأت فيه، ذلك أن سياستياو كان ينتظره مستقبل واعد لو عاش، فقد آلت إليه مملكة البرتغال بطريقة قدرية وهو لا يزال في الثالثة من عمره، وكان حفيداً لملكين مُهمّين جداً أحدهما هو كارلوس الخامس والد أمه الذي كان إمبراطورا رومانياً مُقدساً وكان من أقوى من مروا على هذا الكرسي ، وقد خلفه شقيقه ثم ابنه، وابن شقيقه مع قرابة هؤلاء جميعاً للمهدي المنتظر البرتغالي من ناحية أمه التي كانت ابنة لذلك الإمبراطور القوي، أما جده البرتغالي الذي ورثه مباشرة نتيجة وفاة أبيه قبل جده فكان هو نفسه زوجاً لشقيقة كارلوس وشقيقاً لزوجة كارلوس.

وعلى طريقتي في كتابة الأنساب بطريقة علم الجبر فإن سياستياو كان سبطا لسبط الملكة الإسبانية إيزابيلا عميدة التعصب ضد المسلمين والإسلام ، كما أنه كان حفيدا لسبط آخر من أسباطها .

لكن رعونة هذا الملك في التعدي على المسلمين ومواجهة الدولة العثمانية في أوج صعودها أفقدته كل شيء: حياته وعرشه وجيشه وأسطوله.

ومع هذا فإن قساوسته أخذوا من التراث الفكري المتاح عند بعض فلاسفة ومؤرخي المسلمين فكرتي المهدي المنتظر، أو الإمام الغائب وصنعوا منها ما أصفه بأنه كان بمثابة أسطورة علاجية للشعب البرتغالي تحاول أن تُغطي ضياع هوية البرتغال بل ودولتها التي كانت أول دولة أوربية مارست الاستعمار في مقابل الفتوحات الإسلامية.

التماثل بين السبط والجد

والواقع أن سياستياو الذي هو سبط لكارلوس الخامس كان شبيها لجده في نيل العرش ، لكنه لم يهنأ بهذا العرش بسبب وفاته المبكرة عن ٢٤ عاماً (١٥٥٤ - ١٥٧٨)، مع أنه كان الابن الوحيد لوالده الأمير الذي توفي قبل ولادته بأسبوعين، فلما توفي جده الملك جوان الثالث (زوج شقيقة كارلوس وشقيق زوجة كارلوس) بعد ثلاثة أعوام أصبح هذا الطفل هو وريث مملكة البرتغال، بينما كان عمه قد انصرف

مُبكراً إلى الدير ، نظراً لأنه كان أصغر من أبيه، وفيما بعد وفاة سيباستيانو الفُجائية ، فإن هذا العم ترك الدير والرهبنة ليخلف ابن أخيه لفترة قصيرة جداً يموت بعدها .

أم الملك التي لم تر ابنها من رضاعته لموته

ومن عجائب التاريخ القاسي وعلم النفس معاً ما أشرنا إليه من قبل من أن أم هذا المهدي المنتظر وهي جوانا ابنة كارلوس (و المسماة على اسم جدتها جوانا المجنونة ابنة إيزابيلا زعيمة التعصّب) لم تر ابنها هذا منذ كان رضيعاً ، ذلك أنها فضّلت الاهتمام بعرش أسبانيا على الاهتمام بعرش البرتغال ، فعرش إسبانيا هو عرش أبيها، وهو عرش أخيها فيليب الثاني ، وهكذا فإنها في ١٥٥٦ تركت البرتغال إلى إسبانيا وتركت ابنها (الذي صوروه على أنه المهدي المنتظر) فلم تره منذ كان رضيعاً في الثانية من عمره، وها هي تعيش حتى ١٥٧٦ أي حتى بلوغه التاسعة عشرة من عمره من دون أن تُرتب أمر زواجه ، على الرغم من وجودها في أسبانيا ، وأنه كان بوسعها أن ترتب أمر زواجه من ابنة أخيها فيليب أو من غيرها من المرشحات للزواج منه.

دور خالته و زوج خالته

كانت للمهدي المنتظر البرتغالي خالة هي ماريا (١٥٢٨ - ١٦٠٢) قدر لها أن تعيش طويلاً بمتوسط اعمار ذلك الزمان (٧٥ عاماً) ، وقد تزوجت ماريا هذه من ابن عمها، ماكسمليان الذي اجتمعت فيه خيوط الإمبراطورية، فقد ورث أباه وكان أبوه إمبراطوراً ورث عمه الإمبراطور وهكذا فإن ماكسمليان الثاني (١٥٢٧ - ١٥٧٦) الذي هو ابن شقيق كارلوس، وزوج ابنة كارلوس خلف أباه الذي كان قد خلف عمه (والذي هو حموه أيضاً) وأصبح هو الإمبراطور الروماني المقدس ما بين ١٥٦٤ و ١٥٧٦، وبالإضافة إلى هذا فقد كان ملكاً لبوهيميا منذ ما قبل تنصيبه إمبراطوراً مقدساً بعامين (سبتمبر ١٥٦٢ وحتى وفاته) وملكاً لألمانيا (منذ نوفمبر ١٥٦٢ وحتى وفاته) وملكاً للمجر وكرواتيا (منذ سبتمبر ١٥٦٣ مع النزاع عليها).

نهاية حظ العرش البرتغالي

قدر لماكسمليان الثاني الذي هو زوج خالة الملك البرتغالي (الذي صوروه على أنه المهدي المنتظر) أن يعيش حتى يرى صعود المهدي المنتظر البرتغالي ، لكنه

توفي (١٥٧٦) قبله بعامين وورثه ابنه رودولف الثاني (١٥٥٢ - ١٦١٢) الذي كان يكبر المهدي المنتظر البرتغالي بعامين، لكنه عاش بعده ٣٤ عاماً وتولى مهمة الإمبراطور الروماني المقدس خلفاً لأبيه الذي اجتمعت فيه جينات إمبراطورين رومانيين مقدسين كان أولهما عمه، وثانيهما والده وقد توليا الإمبراطورية الرومانية المقدسة على التوالي قبل ماكسمليان الذي خلفهما، ثم خلفه ابنه رودلف الثاني.

وقد كان للإمبراطور ماكسمليان زوج خالة سيباستياو شقيق أصغر منه خلفه في الإمبراطورية وهو ماتياس (١٥٥٧ - ١٦١٩)، وشقيقة هي إليزابيث الإسبانية - الفرنسية (١٥٥٤ - ١٥٩٢) التي تزوجت شارل التاسع ملك فرنسا (١٥٧٠ - ١٥٧٤) وعاصرت عهد سميتها الملكة العذراء المباركة إليزابيث الأولى ملكة بريطانيا (١٥٣٢ - ١٦٠٢)

الفرق في الحظ بين العرشين الإسباني و البرتغالي

وهكذا كان عرش أسبانيا ينتقل من كارلوس إلى شقيقه ثم إلى ابنه ثم إلى ابن شقيقه (الذي هو زوج ابنته) ثم إلى حفيد الشقيق (الذي هو حفيده أيضاً) ، بينما كان حظ العرش البرتغالي سيئاً ، فها هو المهدي المنتظر البرتغالي الذي خلف جدّه المعاصر لكارلوس وسليمان القانوني الذي هو أيضاً حفيد لكارلوس يفقد حياته وجيشه و أسطوله في ١٨٧٨ ويضيع العرش البرتغالي الذي يؤول بعد عامين إلى خاله الملك فيليب الثاني الإسباني ابن الإمبراطور كارلوس.

المحتويات

٥	هذا الكتاب
١٣	الباب الأول
١٣	البداية من النهاية
١٣	الفصل الأول
١٣	السبب الذي أودى بحياة الدولة العثمانية
١٣	الكارثة لا تزال قابلة للتكرار
١٤	حتمية ربط الجماهير المسلمة بالعلم
١٤	العواقب السياسية لتقييد المعرفة
١٤	عجز العثمانيين عن كشف قصور الفكر المناهض لهم
١٥	تحيز الدولة بلا وعي ضد الأغلبية المسلمة
١٥	المفارقة في قصة الكلية السورية
١٦	تحول في الولاء مع العجز عن التأثير
١٦	الوقوع في أسر الأثر الدفين للأدب الفرنسي
١٧	التصوير في محل التصور
١٧	ضرورة ارتباط التحول السياسي باندفاع معرفي
١٨	الفصل الثاني
١٨	الانقلاب العسكري الذي أضاع الدولة العثمانية في تسع سنوات
١٨	موجات الحراك
١٨	الإنعاش و الانتعاش و الانتفاش
١٩	العسكريون ينظرون بقلق بالغ إلى التعددية
١٩	الانقلاب العسكري فرض استراتيجية مضادة للعثمانيين
٢٠	طرائف القدر في أسماء القيادة الثلاثية
٢٠	المآسي التي ارتكبتها القادة العسكريون
٢٠	ضبياع البوسنة والهرسك
٢٠	الهجوم الإيطالي على ليبيا
٢١	خروج العثمانيين من البلقان
٢١	التورط في نزاعات الأرمن

٢١	التهور بدخول الحرب العالمية الأولى
٢١	معنى تسمية الاتحاديين
٢٢	الفصل الثالث
٢٢	كيف كان الانقلاب على السلطان عبد الحميد
٢٢	سببا في الحرب العالمية الأولى ؟
٢٢	هل كان وأد المحاولة الانقلابية ممكنا
٢٢	الاضطراب أصاب التوازن الدولي بسبب حكم الاتحاديين
٢٣	نموذج لتأجيج العداوة في بلاد الشام
٢٣	المأساة التي خلقها حكم الاتحاديين في سوريا
٢٤	مرحلة من فقدان التوازن
٢٤	أصاب فرنسا لم تكف عن تأليب الصرب والبغار
٢٥	عودة فرنسا إلى تذوق الانتصار بتحالفها مع العثمانيين
٢٥	الخداع الفرنسي في مواجهة الواقع
٢٥	الاوربيون و دعم النزعات الانفصالية
٢٦	الفصل الرابع
٢٦	القائد التركي الانقلابي الذي دمر ما بناه عشرون خليفة عثماني
٢٦	شخصية جمال باشا السقّاح
٢٧	المواجهة في الشام و محاولة بعث حروب صليبية
٢٧	إسناد القيادة إلى جمال باشا
٢٧	القرار كان مُناقضا تماما لما هو مطلوب
٢٨	الكوارث التي نشأت في عهد قيادته
٢٨	اندفع بقواته عبر سيناء حتى أنهكها
٢٨	كيف قاد البريطانيون جنودا مصريين ضد العثمانيين
٢٩	مشاركة جمال باشا في معارك الأرمن
٣٠	الفصل الخامس
٣٠	كيف ذبح الانقلاب العسكري المسلمين بالاندفاع الى الحرب العالمية
٣٠	استدعاء التارات التاريخية
٣٠	تعاقب سريع غير متوقع
٣١	لم يكن للدولة العثمانية أية مصلحة في الحرب

٣٢	المثل الشبيه بتصريفات الانقلابيين الأتراك
٣٢	قادة الانقلاب يزايدون بإلغاء الامتيازات الأجنبية
٣٢	صورة طبق الأصل
٣٣	التورط سبق إعلان الحرب
٣٣	كأنه حضور للمهرجان
٣٣	إعلان الحرب كان مُبشراً بنهاية الدولة
٣٤	الباب الثاني
٣٤	التحريض الغربي للأرمن واليونانيين
٣٤	الفصل السادس
٣٤	أسرار الاتهام الأرمن بمذبحة الأرمن
٣٤	هل تؤذي أرمنيا تؤذي نفسها؟
٣٤	الأسباب الكفيلة بإيذاء أرمنيا
٣٥	هل يتغلب الحقد على الأفق الإسلامي؟
٣٥	نتيجة التحقيق لم تكن في صالح الأرمن
٣٥	الأرمن أخذوا بأكثر من الثأر
٣٦	الدور المحوري الذي تؤثر به إسرائيل
٣٦	تعريف المذبحة بالأسلوب المهندس أمريكي
٣٦	أصبح المصطلح العام مقصورا تماما على هذه الأحداث
٣٧	الفصل السابع
٣٧	هكذا تم الثأر منذ مائة عام لرعونة الانقلابيين الأتراك مع الأرمن
٣٧	نحو لم يعرف التاريخ له مثيلا
٣٧	الخطأ والمبالغة مطلقان وليسا كبيرين فحسب
٣٨	كيف اندفع الانقلابيون الأتراك الى حرب الأرمن
٣٨	ضد سياق العلاقات الإسلامية مع المخالفين في العقيدة
٣٩	ورقة ضغط ضد أي تقدم تركي مستقبلي
٣٩	نهاية حياة زعماء الانقلاب العسكري التركي على يد الأرمن
٤٠	الفصل الثامن
٤٠	وإن حدثت عن اليونان فقل إنها شرقية أكثر منها غربية
٤٠	الظلم الأوربي لليونان

٤١	حظوظ اليونانيين في مصر
٤١	طبيعة اليونانيين لا تسمح بأن يكونوا جنوداً ألمانين
٤٢	بعض أنصار المركزية الأوربية لا يظنون الدين إلا فاصلاً
٤٢	إفلاس نظريات الفصل العنصري
٤٣	تركيا و اليونان عانتا من الانقلابات العسكرية رغم انتمائهما للئاتو
٤٣	مواقف اليونان المعاصرة أميل إلى جاراتها الشرقية
٤٣	التوجه الاشتراكي في اليونان
٤٤	العلاقات المصرية اليونانية في عهد الوفد
٤٤	الفصل التاسع
٤٤	الزحف الروسي على أرض الدولة العثمانية
٤٤	أسباب تلمظ الروس بالعثمانيين
٤٥	انتصار الروس يقلقل السلام الأوربي
٤٥	الانتقال أوروبا الشرقية إلى النفوذ الروسي بدعوى الاستقلال!
٤٦	معاناة بلغاريا من التآمر الأوربي
٤٦	رومانيا و صربيا والجبل الأسود
٤٧	البوسنة و قبرص
٤٧	هل كان من الممكن للدولة العثمانية أن تتجنب نتائج سان ستيفانو؟
٤٨	الباب الثالث
٤٨	الانخداع العربي بفكر الإمبرياليين
٤٨	الفصل العاشر
٤٨	كيف زور العرب لأولادهم تاريخ الدولة العثمانية
٤٨	اصطناع مقرر التربية الوطنية
٤٨	التربية المدنية و الدولة الشمولية
٤٩	ما حدث للتاريخ العثماني في مناهجنا
٤٩	اصطناع اتهامات باطلة ضد العثمانيين
٥٠	إنكار الاسم الحقيقي للانقلاب
٥٠	أثر مظلة حزب تركيا الفتاة
٥١	تزوير نسبة الفعل السياسي لغير صاحبه
٥١	نشأة الجمعية العربية للفتاة
٥٢	التعود على تكرار التزوير

٥٢.....	الفصل الحادي عشر
٥٢.....	الأترك لم يخونوا العرب لحظة واحدة منذ تأسست جمهوريتهم
٥٢.....	معقبات مأساوية
٥٣.....	السماح للجسر الجوي السوفييتي لإسعافنا في حرب ١٩٧٣
٥٣.....	ألف طائرة سوفيتية عبرت تركيا إلى قواتنا المحاربة
٥٤.....	تركيا رفضت استخدام قاعدة الناتو في أي دعم لإسرائيل ضد مصر
٥٤.....	تركيا تعلن وقوفها مع الحق العربي في وقف تصدير النفط
٥٤.....	تأييد الرئيس السادات في كل خطواته للسلام
٥٤.....	دعم مصر كان السبب الحقيقي للإيعاز بانقلاب ١٩٨٠
٥٤.....	التعاون العسكري الذي لم ينقطع لقضايا العرب
٥٥.....	مفارقات سياسية قاسية تحتاج شيئا من التمهّل في استيعابها
٥٦.....	الفصل الثاني عشر
٥٦.....	الإنجاز الذي دمره العرب حقدا على أنفسهم : سكة حديد الحجاز
٥٦.....	الحجم القياسي للإنجاز
٥٧.....	تحمس السلطان عبد الحميد
٥٧.....	النتيجة الفورية : تضاعف الحجيج أربع مرات
٥٧.....	المسلمون تبرعوا بمعظم التكاليف
٥٨.....	كراهية العرب لأية رابطة تقوي صلاتهم
٥٨.....	مظاهر السذاجة و قصر النظر
٥٨.....	محاربة الغرب لمستقبل التنمية العربية
٥٩.....	معاهدة سيفر أجبرت العثمانيين على التخلي عن حقهم
٥٩.....	الأمريكيون كانوا يتمنون مبكرا الفوز بمقاولة المشروع
٥٩.....	إسرائيل طرحت فكرة إعادة مثل هذا الخط
٦٠.....	الفصل الثالث عشر
٦٠.....	العابد الذي أقنع السلطان عبد الحميد بإنشاء سكة حديد الحجاز
٦٠.....	مكانته التاريخية
٦١.....	نشأته في ظلال أبيه
٦١.....	وظائفه القضائية الكبرى
٦٢.....	التلغراف من بنغازي إلى طرابلس الغرب
٦٢.....	أجرى دراسات الجدوى لمد السكة الحديدية

٦٣	إضاءة المدينة المنورة بالكهرباء
٦٣	اللغات التي أجادها و الكتب التي ترجمها و أوقفه الخيرية
٦٣	تكريمه
٦٣	وفاته
٦٤	الباب الرابع
٦٤	العثمانيون والامبراطوريتان الكبيران
٦٤	الفصل الرابع عشر
٦٤	بالمواكبة لصعود العثمانيين انتصر
٦٤	الإنجليز تماما على الكاثوليكية !
٦٤	غياب التناول الغربي الصريح لبعض الحقائق
٦٥	يقولون إنه ظل كاثوليكاً بعد انفصاله بكنيستة الإنجليزية !
٦٥	لم يجد حلاً إلا فيما تقول به الشريعة الإسلامية
٦٥	التتويج ثم الطلاق
٦٦	سلطة الملك تعلو سلطة الكنيسة
٦٦	تصوير شكسبير لإعدام زوجته الثانية
٦٧	مصير زوجاته الثالثة والرابعة والخامسة
٦٧	فضل زوجته السادسة
٦٧	محاولة الملكة ماري للعودة ببريطانيا الى الكاثوليكية
٦٧	الدور المفصلي للملكة إليزابيث الأولى
٦٨	معركة الأربع ثمانيات
٦٨	الفصل الخامس عشر
٦٨	عودة إلى الملك الإنجليزي الذي تأثر بالعثمانيين
٦٨	فتزوج ٦ مرات وانشق عن الكاثوليكية
٦٩	رأى الحل في التحرر من الكاثوليكية
٦٩	كثرة لجوئه الى الإعدام
٧٠	قيمه بين الملوك المعاصرين له
٧٠	إعدام المفكر البريطاني توماس مور
٧١	رد فعله على حل المشكلة الكهنوتية في زوجته الأولى
٧١	الفصل السادس عشر

٧١ بدايات عصر النهضة الفرنسية بالتحالف مع الدولة العثمانية
٧١ قلب الطابع الباريسي عثماني
٧٢ الأدبيات الفرنسية والأوربية تسميه التحالف
٧٣ خروج العالم الكاثوليكي من أسر الكهنوت
٧٣ انتقال ثمار الحضارة الإسلامية
٧٤ الكوليج دي فرانس أسست لتكون كلية للغة العربية
٧٤ الاقتداء بالازدواج اللغوي عند العثمانيين
٧٤ ظهور فضل التسامح الديني
٧٥ أسباب تفضيل فرنسا للعثمانيين
٧٥ الفصل السابع عشر
٧٥ لولا تعاون باريس مع العثمانيين لعادت الإنسانية إلى العصر الحجري
٧٥ صعود ثلاثية الاتساع والقوة والشر
٧٦ مواجهة الإمبراطورية الطاغية
٧٦ معركة نيس الحضارية الفاصلة
٧٧ القاعدة العثمانية في مدينة طولون الفرنسية
٧٧ إنقاذ فرنسا من طغيان كارلوس الخامس
٧٧ الصيغة المبكرة لتوازن القوى الأوربية
٧٧ حماية الإنسانية من التعصب الديني
٧٨ الفصل الثامن عشر
٧٨ من أجل مجاملة فرنسا اضطرت الميزانية العثمانية نصف قرن
٧٨ أول نموذج للحروب الباهظة
٧٩ الاندفاع السهل إلى الاقتراض
٧٩ جوهر الأحقاد و الاستراتيجيات في حرب القرم
٨٠ كيف أشعل القيصر نيقولا الأول حرب القرم
٨١ السبب الحقيقي لحرب القرم
٨١ هزيمة الروس ومفاوضات سيفاستوبول
٨٢ مخطط الروس الذي أجهضه البريطانيون
٨٢ كيف بدأت الحرب وكيف انتهت
٨٣ الباب الخامس
٨٣ الإمبراطورية الرومانية المقدسة

٨٣ الفصل التاسع عشر
٨٣ خطة احتكار العروش التي نفذتها الملكة الإسبانية إيزابيلا الأولى للتعصب ضد الإسلام واليهود
٨٣ الزواج الكارثي
٨٤ الفكرة الوحيدة التي استولت على الملكة إيزابيلا
٨٤ استثمار زيجات أولادها الخمسة
٨٤ مصاهرة النمسا للمرة الأولى
٨٤ مصاهرة البرتغال ثلاث مرات
٨٥ عودة الى مصاهرة النمسا
٨٥ مصاهرة إنجلترا
٨٦ الفصل العشرون
٨٦ كيف انتصر سليمان القانوني على
٨٦ عصبة الملوك الكاثوليك المتعصبين
٨٦ مكانة سليمان القانوني بين الأقطاب المتعاصرين
٨٦ مانويل الأول
٨٦ هنري الثامن
٨٦ كريستيان الثاني
٨٧ كارلوس
٨٧ لويس الثاني
٨٧ فرنسوا الأول
٨٧ جون الثالث
٨٧ ثم طلعت شمس سليمان القانوني
٨٧ مرجعية الإمبراطور الروماني المقدس كارلوس
٨٨ الامتداد الجغرافي الواسع للإمبراطورية الرومانية
٨٨ قصة فيليب الأول ملك قشتالة
٨٩ الفصل الواحد والعشرون
٨٩ كيف أرهب العثمانيون الملك فيليب الثاني
٨٩ الذي تزوج ابنة شقيقته وسميت الفلبين على اسمه؟
٨٩ ابن الامبراطور كارلوس
٨٩ توسع مؤقت في امبراطورية أبيه

٨٩.....	التعصب و الاختلال ودور الحاشية
٨٩.....	حرصه على النأي بنفسه عن حرب المسلمين
٩٠.....	مكانة فيليب الثاني في التاريخ
٩٠.....	تجربته في تكرار الزواج
٩٠.....	هل كرر الاعتداء على حق ابنه؟
٩١.....	الزيجة الأولى لفيليب تؤكد عرقه البرتغالي
٩١.....	الزيجة الثانية لفيليب تخلق له نسبا بالإنجليز
٩٢.....	الزيجة الثالثة لفيليب تخلق له نسبا بالفرنسيين
٩٢.....	الزيجة الرابعة من ابنة اخته النمساوية
٩٣.....	ثم عاش عقدين بلا زواج
٩٣.....	الفصل الثاني والعشرون
٩٣.....	نهاية أول دولة للاستعمار المتعصب
٩٣.....	بفضل العثمانيين في معركة الملوك الثلاثة
٩٣.....	طبيعة حروب الثورات المضادة
٩٤.....	إرهاصات ما يسمى بالثورة المضادة
٩٤.....	الانتصار العثماني الذي لا يلقي عليه الضوء الكافي
٩٤.....	قصة معركة الملوك الثلاثة
٩٥.....	كيف أصبح سيباستياو ملكا في الثالثة من عمره
٩٥.....	انشغل بالتعصب عن الزواج
٩٦.....	استعانة أبو مروان بالدولة العثمانية
٩٦.....	لم يستجب لتحذير خاله
٩٧.....	نهاية البرتغال المتعصبة
٩٨.....	الفصل الثالث والعشرون
٩٨.....	الإمام الغائب أو المهدي المنتظر البرتغالي
٩٨.....	تجليات الفكرة
٩٩.....	مبررات فكرة المهدي المنتظر البرتغالي
٩٩.....	التماثل بين السبط والجد
١٠٠.....	أم الملك التي لم تر ابنها من رضاعته لموته
١٠٠.....	دور خالته و زوج خالته
١٠٠.....	نهاية حظ العرش البرتغالي
١٠١.....	الفرق في الحظ بين العرشين الإسباني و البرتغالي

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

**The Ottomans Ethics
In European Conflicts
(1526 – 1924)**





الدكتور محمد الجوادى

نحاول في هذا الكتاب أن نجتهد في أن نجيب على خمسة أسئلة كبرى رتبناها بأهميتها لا بأقدميتها ، فبدأنا بأحدثها الذي يتعلق بنهاية الدولة العثمانية وأهم سبب من أسباب نهايتها من وجهة نظرنا، وحللنا هذا السبب على نحو غير مسبق، وإن لم يكن صعب الإدراك والاستيعاب والتصديق، وقصدنا من هذا التحليل الصريح أن يكون الضوء كافياً حتى لا نقع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى ، وإن كنا نرى أننا (كأمة مسلمة) معرضون للوقوع فيه بسبب نمطية فهمنا لبعض القيم بعيداً عن الأفق المفتوح والإيمان بالتجريب والتغليب والاستيعاب والاستصحاب، وفهم التلازم الفيزيقي بين الرث والمفيد، والافتران البيولوجي بين الجذب والخصيب.

